

قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوَجٍ

الْعَرَبِيَّةُ بِوَصْفِهَا طَرِيقًا إِلَى التَّقْوَى

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

فُرَآناً

عَرَبِيّاً

غَيْرَ ذِي عِوَجٍ

العربية بوصفها طريقاً إلى التقوى

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

البداية

قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الزمر (٢٨)

لطالما تساءلتُ ما علاقة القرآن بالعربية؟ وما علاقة التقوى بها كذلك؟

والجواب: العلاقة هنا دقيقة جدًا: ليست العربية في الآية مجرد لغة نزل بها القرآن، بل هي جزء من هندسة البيان الذي يقود إلى التقوى.

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

يجمع ثلاث طبقات متتابعة:

قرآنًا: أي كلامًا مقروءًا مجموعًا متلوًا، ليس شذرات متفرقة، بل خطاب متماسك يُعاد على القلب حتى يصوغ وعيه.

عربيًا: أي نازلًا بلسانٍ مبين، واضح الدلالة، بالغ القدرة على الكشف، قادر على حمل المعنى بأدق درجاته: أمرًا ونهيًا، وعدًا ووعدًا، حجةً ومثلاً، تذكيرًا وترغيبًا، تقريعًا وتزكية.

غير ذي عوج: أي ليس فيه ميلٌ عن الحق، ولا اضطراب في المعنى، ولا التواء في البيان، ولا تناقض في الهداية؛ طريقه مستقيم، وحجته مستقيمة، ولغته مستقيمة، ومقصده مستقيم.

ثم تأتي الغاية: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

أي: لم ينزل القرآن عربياً مبيناً مستقيماً ليكون مجرد معجزة لغوية تُعجب الأسماع، بل ليصل البيان إلى موضع التكليف في الإنسان؛ إلى عقله وقلبه وضميره، حتى تقوم عليه الحجة، وتتقطع عنه المعاذير، وينشأ فيه وازع التقوى.

فالعربية هنا ليست زينة خارجية للقرآن، بل هي وعاء الوضوح، وأداة البلاغ، ومجال إقامة الحجة.

لأن التقوى لا تنشأ من خطابٍ غامضٍ ملتبس، ولا من بيانٍ ملتوي، ولا من كلامٍ لا يفهم على وجهه؛ التقوى تحتاج إلى نورٍ كاشف، وإلى معنى مستقيم، وإلى خطاب يبلغ الإنسان في داخله بلا عوج. ولذلك قال قبلها: عربياً غير ذي عوج، ثم قال: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.

كأن المعنى:

أنزلناه قرآناً مجموع الهداية، بلسانٍ عربيٍّ مبين، مستقيم الدلالة، سالم من الانحراف والالتباس، حتى يتلقّوه على بينة، فيعرفوا الحق، ويهتدوا إلى الصراط، وتتحرك فيهم خشية الله.

ومن هنا نفهم أن علاقة القرآن بالعربية علاقة اختيار إلهي للسانٍ قادر على البيان المعجز، لا لأن العربية مقدسة بذاتها استقلالاً عن الوحي، بل لأن الله اصطفاه لتكون اللسان الذي يحمل آخر كتبه إلى الناس، فجعلها وعاءً للذكر، وميداناً للإعجاز، وطريقاً إلى الفهم، وحجّةً على المخاطبين الأوائل، ثم مفتاحاً للأمة كلها في فهم الوحي.

والتعبير بـ **(غَيْرِ ذِي عِوَجٍ)** بعد **(عَرَبِيًّا)** مهم؛ لأن العربية المقصودة ليست مجرد ألفاظ عربية، بل عربية القرآن: عربية البيان المستقيم، والنظم المعجز، والدلالة المحكمة، التي لا تُضِلُّ السامع بالالتواء، بل تأخذه من وضوح اللفظ إلى استقامة القلب.

فالقرآن عربيٌّ لِيُفْهَمَ، وغير ذي عِوَجٍ لِيُوثَقَ به، وغايته أن يُتَّقَى الله به.

وهذه من أعظم الحقائق: أن اللغة في القرآن ليست جسداً للمعنى فقط، بل طريقٌ إلى التقوى؛ لأن الكلمة القرآنية حين تكون مبيّنة مستقيمة لا تكتفي بأن تُخبر الإنسان، بل تكشفه لنفسه، وتضعه أمام ربه، وتحول الفهم إلى مسؤولية.

وما أجمل أن يتحول سؤال صغير حول لفظة قرآنية إلى بابٍ واسع يرى فيه الإنسان أن القرآن لا يعلمنا المعاني فقط، بل يعلمنا كيف يكون المعنى مستقيماً؛ وأن العربية في القرآن ليست مجرد لغة، بل نظام هداية، وأن البيان إذا صفا من العوج صار طريقاً إلى التقوى.

ولعل هذه الآية تصلح أن تُبنى عليها قاعدة كبرى:

كلما كان الخطاب أوضح في الحق، وأقوم في الدلالة، وأبعد عن الالتواء،
كان أقدر على إنشاء التقوى في القلب.

ولهذا كان القرآن عربياً غير ذي عوج؛ لأن الله أراد للإنسان أن لا يتيه في
ضباب العبارة، بل أن تقف الكلمة أمامه كالصراط: واضحة، مستقيمة،
ناصعة، لا تترك له عذراً في الغفلة، ولا منفذاً إلى التحايل على الحقيقة.

ومن هنا يكون جمال القرآن ليس جمال لفظٍ فحسب، بل جمال هداية؛ جمالٌ
يأخذ اللغة من كونها أداة تعبير، فيجعلها أداة إحياء، وتطهير، وتقويم، وإنشاء
للتقوى في أعماق الإنسان.

من هنا كان هذا السؤال مدخلاً لتأليف هذا الكتاب من هذه الآية لا بوصفها
آيةً مفردة، بل بوصفها مدخلاً إلى نظرية قرآنية كبرى في علاقة اللسان
بالهداية، والبيان بالتقوى، واستقامة اللغة باستقامة الإنسان.

إن القرآن حين وصف نفسه بأنه عربيٌّ غير ذي عوج لم يكن يقرر صفة
لغوية مجردة، بل كان يكشف عن علاقة عميقة بين وضوح الخطاب وقيام
الحجة ونشوء التقوى؛ فالتقوى لا تنبت في أرض الالتباس، ولا تقوم على
بيانٍ متعثر، ولا تنشأ من خطابٍ مائلٍ عن الحق، وإنما تحتاج إلى كلمة
مستقيمة، ونظمٍ مستقيم، وحجةٍ مستقيمة، ولسانٍ يبلغ النفس في أعماق مواضع
وعياها، حتى لا يبقى بينها وبين الحق حجابٌ من غموض أو عوج.

المُقَدِّمَةُ الْكُبْرَى

حِينَ تَصِيرُ اللُّغَةُ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ

ليست العريّة في القرآن مجرد لسانٍ نزل به الوحي، ولا صفةً تاريخيّةً تُحيل إلى بيئة النزول الأولى فحسب، ولا علامةً قوميّةً يُراد بها تمجيد قومٍ من حيث هم قوم، وإنما هي، في أعماق أسرارها، جزءٌ من هندسة البلاغ الإلهي، ووجهٌ من وجوه الرحمة بالإنسان، إذ شاء الله أن يُنزل كتابه الأخير بلسانٍ قادرٍ على أن يحمل الحق في صفائه، والحجّة في استقامتها، والجمال في وظيفته، فلا تكون الكلمة فيه زينةً منفصلةً عن الهداية، ولا يكون البيان فيه مهارةً لغويّةً معزولةً عن التقوى، بل تصير اللغة نفسها طريقًا إلى الله، وتصير العبارة القرآنية صراطًا من نور بين السمع والقلب، وبين الفهم والعمل، وبين وضوح الدلالة وخشية المأل.

ومن هنا تأتي الآية الكريمة في سورة الزمر كأنها تضع بين أيدينا مفتاحًا من مفاتيح فهم القرآن لنفسه، لا بوصفه نصًّا عربيًّا فحسب، بل بوصفه خطابًا مستقيمًا في لسانه، مستقيمًا في معناه، مستقيمًا في مقصده، مستقيمًا في أثره:

(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ).

إنها آية قصيرة في مبناها، ولكنها عظيمة في هندستها؛ لأنها لا تذكر العريّة وحدها، ولا تذكر الاستقامة وحدها، ولا تذكر التقوى وحدها، بل تجمع هذه الثلاثة في نسقٍ واحد: قرآنًا عربيًّا، غير ذي عوج، لعلهم يتقون. وكأن الآية

تقول إنّ الطريق إلى التقوى يمرّ عبر بيانٍ مبين، وإنّ البيان لا يكون هاديًا حقًا حتى يكون مستقيمًا لا عوج فيه، وإنّ اللغة حين تدخل في سلطان الوحي لا تبقى أداةً للتوصيل فقط، بل تصبح أداةً للتركية، والإنذار، والتقويم، وإقامة الحجة على الإنسان.

فالقرآن لم ينزل غامضًا حتى يترك الإنسان في عذر الالتباس، ولم ينزل ملتويًا حتى يجد الهوى فيه مسالك التلاعب، ولم ينزل متناقضًا حتى يضطرب السالك في طريقه، بل نزل عربيًا مبينًا، غير ذي عوج، حتى تكون الدلالة بيّنة، والحجة قائمة، والطريق واضحًا، والإنسان مسؤولًا أمام ما فهم، لا أمام ما جهل.

وهنا يظهر السرّ العميق في ختم الآية بقوله تعالى: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)؛ إذ التقوى ليست ثمرة وعظٍ عاطفيٍّ مجرد، ولا انفعاليًا طارئًا ينشأ من رهبة عابرة، بل هي ثمرة وعيٍ مستقيم، وإدراكٍ صادق، وانكشافٍ داخليٍّ يجعل الإنسان يرى موضعه أمام ربه، ويدرك أن الكلمة التي بلغته لم تكن كلمةً عادية، بل خطابًا من الله، وأن البيان الذي أُقيم عليه ليس بيانًا قابلاً للعبث، بل نورًا يكشف، وميزانًا يفرّق، وصراطًا يلزم.

إنّ القرآن حين يكون عربيًا، فهو يبلغ الإنسان من جهة اللسان؛ وحين يكون غير ذي عوج، فهو يبلغ الإنسان من جهة الاستقامة؛ وحين تكون غايته التقوى، فهو يبلغ الإنسان من جهة المصير. فاللسان هنا ليس حدًا ثقافيًا ضيقًا، بل مفتاحٌ للفهم، والاستقامة ليست صفةً لفظيّةً جامدة، بل نظامٌ شاملٌ للحق،

والتقوى ليست نتيجة خارجة عن اللغة، بل هي الثمرة التي أَرادها الله من هذا البيان العربي المستقيم.

ولهذا لا يجوز أن نفصل في فهم هذه الآية بين العريّة والتقوى، كما لا يجوز أن نفصل بين البلاغة والهداية، ولا بين جمال النظم ووظيفة الوحي. فالقرآن لم يكن معجزاً لأنه جميل فقط، بل كان جميلاً لأنّ جماله محكوم بالحق، وكان بليغاً لأنّ بلاغته تهدي، وكان عربياً لأنّ عربيته صارت في الوحي لساناً للحقيقة، لا مجرد لغةٍ من لغات البشر.

والفرق عظيم بين لغةٍ تُبهر ثم تترك القلب كما هو، ولغةٍ تكشف حتى تغيّر، وبين بيانٍ يستميل السمع، وبيانٍ يقيم الحجة على الروح، وبين فصاحةٍ تخدم الهوى، وفصاحةٍ تقود الإنسان إلى الله. فالقرآن لا يريد من قارئه أن يقف عند حدود الإعجاب، بل يريد أن ينقله من الإعجاب إلى الاتباع، ومن التذوق إلى الخضوع، ومن الفهم إلى التقوى.

وإذا كان كثير من الناس ينظرون إلى العريّة القرآنية من جهة الإعجاز البياني وحده، فإنّ هذه الآية تفتح باباً أوسع؛ إذ تبين أن الإعجاز ليس في جمال الأداء فحسب، بل في أن هذا الجمال نفسه صار عاملاً من عوامل الهداية، وأن اللغة لم تعد في القرآن وعاءاً للمعنى فقط، بل صارت داخلةً في صناعة اليقظة، وتربية الخشية، وتقويم الوعي، وبناء الضمير.

إنّ الله لم يقل: قرأنا عربياً فحسب، بل قال: (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)؛ لأنّ العريّة وحدها، من حيث هي أداة بشرية، قد تُستعمل في الحق والباطل، وفي الصدق والكذب، وفي البيان والتلبيس، وفي الحكمة والمكر، وفي الشعر والهجاء،

وفي الإصلاح والإفساد. أمّا العريّة حين تدخل في القرآن، فإنها تدخل في سلطان الوحي، فتُطهر من عبث الهوى، وتُحكم بقصد الله، وتغدو لغةً مستقيمةً في معناها ومبناها ومآلها.

ومن هنا يكون هذا الكتاب محاولةً لتأمل هذه الحقيقة الكبرى: كيف صارت العريّة في القرآن طريقًا إلى التقوى؟ وكيف تحوّل اللسان إلى مجالٍ للهداية؟ وكيف اقترن البيان بالاستقامة؟ وكيف صار نفي العوج عن القرآن نفيًا لكل اضطراب في التصور، ولكل ميل في المنهج، ولكل التواء في الحجة، ولكل ظلمةٍ قد تحول بين الإنسان وبين رؤية الحق؟

لن يكون هذا الكتاب بحثًا لغويًا جافًا، ولا دفاعًا قوميًا عن العريّة، ولا استعراضًا بلاغيًا يكتفي ببيان جمال العبارة؛ بل هو قراءةٌ في الوظيفة الإيمانية للبيان القرآني، وفي العلاقة الخفية بين صفاء اللفظ وصفاء الطريق، وبين استقامة المعنى واستقامة الإنسان، وبين الكلمة التي لا عوج فيها والقلب الذي يُدعى إلى التقوى.

الفصل الأول

معنى أن يكون القرآن قرآنًا

قبل أن نقف عند قوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾، وقبل أن نتأمل وصفه بأنه ﴿غَيْرَ ذِي عَوَجٍ﴾، ينبغي أن نتوقف عند الكلمة الأولى في هذا النسق: ﴿قُرْآنًا﴾؛ لأن الآية لا تقول: كلامًا عربيًّا، ولا كتابًا عربيًّا فقط، بل تقول: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وكأن صفة العريّة جاءت بعد حقيقة القرآن، لا قبلها؛ فالقرآن أولاً هو قرآن، ثم هو عربي، ثم هو غير ذي عوج، ثم تكون الغاية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

ومعنى هذا أن العريّة هنا لا تُفهم منفصلةً عن طبيعة القرآن ذاته؛ لأن اللسان في القرآن ليس مجرد وعاءٍ محايدٍ يحمل أي مضمون، بل هو لسانٌ داخلٌ في بنية خطابٍ مخصوص، له طريقة في التلاوة، وطريقة في التذكير، وطريقة في بناء الوعي، وطريقة في إعادة تشكيل الإنسان.

فالقرآن من حيث هو قرآن ليس نصًّا يُقرأ مرةً ثم ينتهي أثره، وليس معلومةً تُحفظ ثم تُترك في زاوية الذاكرة، وليس خطابًا تاريخيًا عابرًا نزل في زمن ثم بقيت ألفاظه بعد غياب فعله؛ بل هو كلام الله المتلو، الذي يتجدد أثره بتجدد التلقي، ويعود على القلب مرةً بعد مرة، حتى لا يترك الإنسان في حالته الأولى.

إنّ في لفظ القرآن معنى الجمع، ومعنى القراءة، ومعنى التلاوة، ومعنى الحضور المتكرر؛ فهو كلامٌ لا يُطلب منه أن يمرّ على الإنسان مرورًا

سريعًا، بل أن يصاحبه، ويخاطبه، ويعيد بناء داخله، ويوقظه كلما غفل، ويقيمه كلما مال، ويكشف له نفسه كلما اختلط عليه الطريق.

ولهذا كان القرآن مختلفًا عن الكلام البشري مهما بلغ ذلك الكلام من البيان؛ لأن الكلام البشري قد يلمع لحظة ثم يخبو، وقد يؤثر في موضع ثم يضعف، وقد يعبر عن تجربة صاحبه ثم يبقى محدودًا بحدودها، أما القرآن فإنه لا يقدم تجربة بشرية، بل يخاطب الإنسان من جهة خالقه، ويعيده إلى أصل عبوديته، ويضعه أمام الحق الذي لا يتغير، والمصير الذي لا يلغى، والميزان الذي لا يحابي.

ولذلك فإن أول ما ينبغي فهمه هنا أن القرآن لا يعمل في الإنسان عمل النصوص العادية؛ إنه لا يكتفي بأن يمنح العقل معنى، بل يمنح القلب موقفًا، ولا يكتفي بأن يقدم له معرفة، بل يطالبه بمسؤولية، ولا يكتفي بأن يقول له: هذا هو الحق، بل يضعه أمام هذا الحق حتى لا يستطيع أن يخرج منه كما دخل.

فإذا قيل: (قُرْآنًا عَرَبِيًّا)، فالمعنى ليس أن لدينا ألفاظًا عربية وحسب، بل أن لدينا خطابًا متلّوًا، متجدد الحضور، نزل بلسان عربي مبين، ليصير هذا اللسان جزءًا من عملية التذكير والتربية والهداية. ومن هنا تصبح التلاوة نفسها فعلًا تربويًا، لا مجرد أداء صوتي؛ لأن القرآن حين يُتلى، فإنه لا يعيد على السمع أصواتًا فقط، بل يعيد على النفس حقائقها الكبرى: من أنت؟ وإلى أين تمضي؟ ومن ربك؟ وما معنى أن تعيش؟ وما الذي ينتظرك بعد الموت؟

وما الوزن الحقيقي للدنيا؟ وما قيمة العمل؟ وما خطورة الغفلة؟ وما معنى أن تتقي الله؟

وهذا هو الفرق بين قراءة تُنهي الآية، وقراءة تجعل الآية تبدأ في الداخل.

فقد يقرأ الإنسان القرآن قراءةً ينقضي بها اللفظ ولا يتغيّر بها القلب، وقد يتلوّه تلاوةً يدخل فيها اللفظ إلى موضع القرار من نفسه، فيجد أنّ الآية لا تخبره فقط، بل تُحاكمه، ولا تعلّمه فقط، بل تكشفه، ولا تذكره فقط، بل تنقله من حال إلى حال.

ومن هنا نفهم لماذا كان القرآن قرآنًا قبل أن يكون عربيًّا في نظم الآية؛ لأنّ العريّة في القرآن ليست لغةً معلّقة في الهواء، بل لغةٌ تعمل داخل خطابٍ إلهيٍّ متلو، مقصوده أن يردّ الإنسان إلى ربه. فلو نظرنا إلى العريّة وحدها بمعزل عن كونها لسان القرآن، لأمكن أن ننشغل بجمالها التاريخي، وثرأ ألفاظها، واتساع جذورها، وقوة بيانها، لكننا قد نفوّت السرّ الأعظم: أن هذه العريّة في القرآن صارت خادمةً لكلام الله، محكومةً به، داخلّةً في قصده، مؤديةً لوظيفته.

وهنا تظهر خطورة التعامل مع القرآن كأنه مجرد نصٍّ أدبيٍّ فائق؛ لأنّ هذا النظر، وإن أصاب شيئاً من جمال البيان، قد يغفل عن حقيقة أن جمال القرآن ليس غايةً مستقلّة، بل هو جمالٌ هادٍ، وأنّ نظمه ليس معماراً لغويّاً للإعجاب، بل معمارٌ إلهيٌّ لإقامة الحجة وإحياء القلب.

فالقرآن ليس كتاب بلاغة، وإن كان أعلى البيان؛ وليس كتاب مواضع مجردة، وإن كان أبلغ الموعظة؛ وليس كتاب تشريع فقط، وإن كان أصل الشريعة؛ وليس كتاب قصص فقط، وإن كان أصدق القصص؛ بل هو كتاب هداية، وكل ما فيه من بيان، وقصة، ومثل، وحكم، ووعد، ووعد، وتشريع، وتذكير، إنما يدخل في هذا المقصد الأعلى: أن يهتدي الإنسان إلى الله، وأن يعرف طريقه، وأن يتقي ربه.

ولذلك كان لفظ قرآنًا في الآية مفتاحًا حاكمًا لما بعده؛ فكأن الآية تقول: هذا الذي نزل ليس كلامًا مفككًا، ولا ألفاظًا متفرقة، ولا حكمًا متناثرة، بل هو قرآن، أي خطابٌ مجموعٌ في هدايته، متلوّ في حضوره، متكرّرٌ في أثره، يعيد بناء الإنسان من جهة السمع، والفهم، والقلب، والسلوك.

ثم تأتي العريّة لتكون لسان هذا القرآن، لا لسانًا منفصلًا عنه؛ فيصير الحرف العربي في القرآن حاملًا لهداية، وتصير الجملة القرآنية مجالًا للتقوى، وتصير الكلمة الواحدة أكبر من حدودها المعجمية؛ لأنها لم تعد كلمةً في كلام بشر، بل كلمةٌ واقعةٌ في نظم الوحي، متصلةٌ بما قبلها وما بعدها، محكومةٌ بسياقٍ إلهيٍّ واسع، داخلٌ في بناءٍ لا عوج فيه.

ومن هنا كان من الخطأ أن يُظن أن القرآن يُفهم بمجرد معرفة العريّة العامة؛ فالعريّة مفتاحٌ لازم، لكنها ليست وحدها كافيةً لمن لم يدخل إلى القرآن بقلبٍ يطلب الهدى، وعقلٍ يتواضع للحق، ونفسٍ مستعدةٍ لأن تُغيّر. فقد عرف المشركون الأوائل العريّة، وبلغوا في فصاحتها مبلغًا عظيمًا، ومع ذلك لم

ينتفع كلهم بالقرآن؛ لأنّ اللسان إذا حضر وغاب الخضوع، قام البيان حجةً ولم يتحول إلى هداية.

وهذه قاعدة دقيقة: القرآن عربيّ ليفهم، ولكنه لا يُفتح حقًا إلا لمن أراد الله له الهداية، وأقبل عليه بقلب لا يطلب من اللغة مخرجًا من التكليف، بل طريقًا إلى الامتثال.

فالعربية تكشف المعنى، لكن التقوى تحتاج إلى صدق التلقي. والبيان يرفع العذر، لكن القلب هو الذي يختار أن يخضع أو يكابر. ولهذا كان القرآن نفسه هدىً ورحمةً للمؤمنين، وكان على الظالمين عمية؛ لا لأن في القرآن نقصًا، حاشاه، بل لأن القلوب تختلف في موقفها من النور.

إنّ معنى أن يكون القرآن قرآنًا أنه ليس نصًّا يطلب منك أن تفهمه فقط، بل خطابٌ يطلب منك أن تتغيّر به. إنه لا يدخل في حياتك كفكرةٍ إضافية، بل كميزانٍ جديد، وإذا أقبلت عليه حقًا، فإنه يعيد ترتيب كل شيء: ترتيب نظرتك إلى الله، وإلى نفسك، وإلى الدنيا، وإلى الناس، وإلى الزمن، وإلى الموت، وإلى العمل، وإلى النجاة.

وهذا هو السر في أن القرآن يتكرر ولا يبلى؛ لأن الإنسان نفسه يحتاج إلى التكرار، يحتاج أن يُعاد عليه الحق حتى ينكسر سلطان الغفلة، وأن تُطرق أبواب قلبه مرارًا حتى يلين، وأن يسمع الآية في مراحل مختلفة من عمره فيجدها كأنها نزلت لتلك اللحظة. فالقرآن لا يتغير، لكن الإنسان يتغير، وكلما تغير الإنسان عاد القرآن إليه بمعنى أعمق، لا لأن المعنى كان غائبًا، بل لأن القلب صار أقدر على التلقي.

ولهذا فإن قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا﴾ يفتح أمامنا أفقًا عظيمًا: إن هذا الكتاب لم ينزل ليكون محفوظًا في المصاحف فقط، ولا مسموعًا في المحاريب فقط، ولا مستشهدًا به في الخطب فقط، بل لينشئ إنسانًا قرآنياً، يرى بالقرآن، ويزن بالقرآن، ويخاف بالقرآن، ويرجو بالقرآن، ويتكلم في ضوء القرآن، ويتحرّى في لغته قدرًا من الاستقامة التي علّمها القرآن.

ومن هنا تبدأ العلاقة بين القرآن والعربية؛ فالقرآن حين نزل بالعربية لم يجعلها مجرد وسيلة نقل، بل أدخلها في عملية الهداية. وصارت الكلمة العربية في القرآن لا تؤدي المعنى على الطريقة البشرية وحدها، بل تؤدي معنى محكومًا بالوحي، مشحونًا بالهداية، مصقولًا بالاستقامة، مبرأً من العوج.

وقد تكون الكلمة في العربية معروفةً قبل نزول القرآن، ثم إذا دخلت في القرآن اكتسبت من النور والسعة والجلال ما يجعلها فوق مألوف الاستعمال. فكلّما مثل: الهدى، التقوى، النور، الصراط، القلب، الرحمة، الفتنة، الصبر، الإيمان، الكفر، الشكر، الذكر، لم تعد في القرآن مجرد ألفاظ ذات معانٍ لغوية، بل صارت مفاتيح لتصورٍ كامل عن الوجود والإنسان والمصير.

وهذا يعني أن القرآن لم يستخدم العربية فقط، بل أعاد بناء وعي العرب بالعربية نفسها؛ نقلها من كونها لغة قبيلةٍ وشعرٍ ومفاخراتٍ وأسواقٍ، إلى كونها لسان وحي، وميزان هداية، وأداة بناءٍ لأمةٍ شاهدة. لقد أخذ اللغة من ساحات التنافس البشري، ووضعها في مقام البلاغ عن الله، فظهرها من العبث، ورفعها إلى وظيفة لم تكن تبلغها من قبل.

ومن هنا فإن سؤال: ما علاقة القرآن بالعربية؟ لا يُجاب عنه بجملّة واحدة، بل بفتح هذا الباب كله: القرآن اصطفى العربية لساناً له، ثم رفعها بالوحي، ثم جعلها ميداناً للإعجاز، ثم جعل البيان العربي القرآني طريقاً إلى التقوى. فالعربية في القرآن ليست مجرد تاريخ، بل قدرٌ بيانيٌّ داخل في حكمة التنزيل.

وإذا كان القرآن قرآنًا، فإن تلقيه لا يكون كتلقي النصوص؛ وإذا كان عربيًّا، فإن فهمه لا يكون بقطع الصلة بلسانه؛ وإذا كان غير ذي عوج، فإن تأويله لا يجوز أن يُدخل عليه بعوج الأهواء؛ وإذا كانت غايته التقوى، فإن كل قراءة لا تزيد صاحبها خشيةً واستقامةً ومراقبةً لله، فهي قراءة لم تبلغ بعد روح الآية.

إنّ القرآن من حيث هو قرآن يعلمنا أن اللغة ليست بريئةً دائماً؛ فقد تكون اللغة طريقاً إلى الحق، وقد تكون طريقاً إلى التلبّيس، وقد تكون وسيلة هداية، وقد تكون أداة فتنة. لكن حين تكون اللغة قرآنية، فإنها تصير لغةً مسؤولة، لا تقول إلا بحق، ولا تزين باطلاً، ولا تغرّ بالزخرف، ولا تصنع عوجاً في الطريق.

ولذلك كان أول درس من هذه الآية أن القرآن لم ينزل ليمنحنا المعنى فقط، بل ليمنحنا معيار المعنى؛ ولم ينزل ليعلمنا ماذا نقول فقط، بل كيف تستقيم الكلمة حين تكون في خدمة الحق؛ ولم ينزل ليكشف لنا طريق التقوى فحسب، بل ليعلمنا أن الطريق إلى التقوى يبدأ أحياناً من كلمة مستقيمة، وبيان واضح، ولسان لا يخون الحقيقة.

ومن هنا، فإن معنى أن يكون القرآن قرآنًا أنه كلامٌ لا يترك اللغة كما كانت، ولا يترك الإنسان كما كان. إنه يُنزل على اللسان نوراً، وعلى القلب ميزاناً،

وعلى الحياة صراطاً، حتى تصير الكلمة مسؤولةً أمام الله، ويصير الفهم مسؤولاً أمام العمل، وتصير التلاوة بدايةً لتحولٍ داخليٍّ عميق.

ولهذا كان ترتيب الآية عظيمًا: قرآنًا أولاً، لأنه خطاب الله المتلو؛ عربياً ثانياً، لأنه بلسان البيان؛ غير ذي عوج ثالثاً، لأنه مستقيم في الحق؛ لعلمهم يتقون رابعاً، لأنها غاية التنزيل وأثره المنتظر في الإنسان.

وبهذا الترتيب تتكشف لنا البنية الأولى للكتاب كله: أن التقوى ليست منفصلةً عن البيان، وأن البيان ليس منفصلاً عن العربية، وأن العربية ليست منفصلةً عن كونها لسان القرآن، وأن القرآن لا يُقرأ على حقيقته حتى يُرى بوصفه خطاباً يريد أن يقيم الإنسان على صراطٍ لا عوج فيه.

الفصل الثاني

عَرَبِيًّا؛ اللِّسَانُ حِينَ يَصِيرُ مَقَامًا لِلْبَيَانِ

حين قال الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ لم يكن يصف القرآن بصفة عارضة، ولا يذكر لغة النزول كما تُذكر اللغات في الفهارس، وإنما كان يكشف عن اختيارٍ إلهيٍّ مقصود، وعن لسانٍ شاء الله أن يكون حاملاً للخطاب الخاتم، وواسطةً بين الوحي والإنسان، ومجالاً تظهر فيه قدرة الكلام الإلهي على أن يبلغ الغاية القصوى من البيان، من غير أن يفقد صفاء الهداية، أو يتحول إلى زخرفٍ لغويٍّ منفصلٍ عن التقوى.

فالعربية هنا ليست مجرد وعاءٍ خارجيٍّ للمعنى، بل هي جزءٌ من بنية التبليغ، وجزءٌ من طريقة القرآن في مخاطبة الإنسان، وجزءٌ من النظام الذي به يُقيم الله الحجة، ويفتح أبواب الفهم، وينقل الكلمة من كونها صوتاً منطوقاً إلى كونها هدايةً داخليةً في القلب، متصلةً بالضمير، قادرةً على أن تُنشئ في الإنسان وعياً جديداً بذاته وربّه ومصيره.

وقد عبّر القرآن عن هذه الحقيقة في مواضع أخرى بعباراتٍ تزيد المعنى إضاءةً، فقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقال: ﴿كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ وهذه المواضع لا تجعل العربية مجرد علامة لغوية، بل تربطها بالعقل، والعلم،

والبيان، والتفصيل، وإمكان التلقي، وكأنّ الوحي يلفت النظر إلى أن لسانه المختار ليس أمرًا جانبيًّا، بل هو من أبواب فهم حكمته في التنزيل.

إنّ وصف القرآن بأنه عربي لا يعني أن رسالته محصورة في العرب، ولا أن هدايته مقصورة على أهل اللسان الأول، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، وإنما يعني أن الرسالة الكونية الخاتمة نزلت في لسانٍ محدد، له خصائصه، ونظامه، وطاقته البيانية، وأن الدخول العميق إلى معاني القرآن لا ينفصل عن احترام هذا اللسان، ومعرفة حدوده، والتأدب مع دلالاته، والحذر من أن يُحمّل القرآن ما لا يحتمله لسانه، أو يُنتزع من عربيته انتزاعًا يجعله قابلاً لكل تأويلٍ عابرٍ أو هوى مستحدث.

وهنا يظهر معنى عظيم: عالمية القرآن لا تعني خروجه من لغته، بل تعني أن هدايته تتجاوز قومه مع بقاء لسانه أصلًا في فهمه؛ فكما أن الشمس تشرق على العالم كله من موضعٍ محدد، فكذلك القرآن أشرق على الإنسانية من لسانٍ عربيٍّ مبين، لا ليحبس النور في قوم، بل ليجعل لهذا النور مدخلًا مضبوطًا، ومفتاحًا محفوظًا، وطريقًا لا يضيع في فوضى الألسنة والتأويلات.

فاللسان العربي في القرآن ليس قوميةً مغلقة، بل أمانةً بيانية؛ وليس امتيازًا عرقيًّا، بل مسؤوليةً علمية وروحية؛ وليس مجرد هوية تاريخية، بل مفتاح لفهم خطاب الله كما نزل، وكما أراد الله أن يبلغه إلى عباده.

ومن أعظم خصائص العربية التي ظهرت في القرآن أنها لغةٌ تجمع بين السعة والدقة؛ فهي واسعةٌ في جذورها واشتقاقاتها، دقيقةٌ في فروقها وأبنيتها، قادرةٌ على أن تحمل المعنى في درجاتٍ متقاربةٍ لا تُغني إحداها عن الأخرى. فكلّمة

واحدة قد تنفتح على أصلٍ دلاليٍّ واسع، ثم يأتي السياق القرآني فيضبطها، ويهذبها، ويجعلها في موضعها كأنها لا تصلح إلا له، حتى يشعر المتدبر أن الكلمة ليست موضوعةً في الآية فحسب، بل مغروسةٌ فيها، كأنها نبتت من معناها، لا جيء بها من خارجه.

وهذا من أسرار البيان القرآني: أن الكلمة فيه لا تؤدي معنىً معجمياً مجرداً، بل تؤدي معنىً في شبكةٍ من العلاقات؛ علاقةً بما قبلها، وما بعدها، وبجو السورة، وبمقام الخطاب، وبالغرض الذي سيقّت له، وبأثرها الصوتي في السمع، وبظلمها النفسي في القلب. ومن هنا لا تستطيع أن تستبدل كلمةً قرآنيةً بأخرى ولو قاربتهما في المعنى، لأن القرب في المعجم لا يعني التطابق في الهداية، ولأن اللفظة القرآنية لا تحمل مدلولها فقط، بل تحمل موقعها، وإيقاعها، ومناسبتها، وسرّ اختيارها.

ولذلك لم يكن العرب، وهم أهل البيان، يسمعون القرآن كما يسمعون كلاماً عربياً عالياً فحسب، بل كانوا يدركون أن هذا الكلام يستعمل لسانهم ولكنه يعلو على طاقتهم، ويجري في مجاري العربية ولكنه لا يخضع لمألوف صناعتهم، ويأتيهم من طريق الحروف التي يعرفونها، ثم يفتح بها أفقاً لا يقدرّون على معارضته. وهذه مفارقة الإعجاز: أن القرآن جاء من جنس ما يعرفون، لكنه بلغ ما لا يملكون.

فلو نزل بلسانٍ لا يعرفونه، لقالوا: لو فهمناه لعارضناه؛ ولو جاء خارج نظام الكلام البشري، لما قامت الحجة على أهل الفصاحة؛ لكنه نزل عربياً، في ميدانهم، وبحروفهم، وأصواتهم، وتراكيبهم، ثم أظهر لهم أن ملكة الإنسان،

مهما بلغت، تقف عند حدّها حين تواجه كلام الله. فالقرآن لم يُعجزهم لأنه غريبٌ عنهم، بل لأنه بلغ الغاية في الشيء الذي كانوا يحسنونه، حتى انكشف لهم أن وراء هذا البيان مصدرًا غير بشري.

غير أن الوقوف عند التحدي البلاغي وحده يُنقص الفهم؛ لأن عريّة القرآن ليست لإظهار العجز الفني فقط، بل لإقامة الهداية أيضًا. فالقرآن لم يأت ليقول للعرب: لن تستطيعوا أن تأتوا بمثله، ثم يتركهم في دهشة بيانية؛ بل جاء ليهديهم، ويزكيهم، وينقلهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الأحد، ومن العصبية إلى الأمة، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الظلم إلى العدل، ومن التفرق إلى الاعتصام بحبل الله.

وهنا يتبين أن العريّة القرآنية ليست مجرد أداة إعجاز، بل أداة إنشاء. فقد أنشأ القرآن بهذه العريّة أمةً جديدة، وضميرًا جديدًا، ومعجمًا جديدًا للحياة، وطريقةً جديدةً في النظر إلى الوجود. لقد أبقى للعربية حروفها وأصواتها، لكنه نقل مركزها من الفخر إلى التقوى، ومن العصبية إلى الشهادة، ومن المتعة البيانية إلى المسؤولية الإيمانية.

كان العربي قبل القرآن يعرف الشجاعة، فجاء القرآن فربطها بالحق لا بالحمية. وكان يعرف الكرم، فجاء القرآن فربطه بالإخلاص لا بالمفاخرة. وكان يعرف الصبر، فجاء القرآن فجعله عبوديةً وثباتًا لا مجرد احتمالٍ قبلي. وكان يعرف المجد، فجاء القرآن فحوّل المجد من ذبوع الاسم بين الناس إلى القبول عند الله. وهكذا لم يغيّر القرآن الألفاظ وحدها، بل غير المعايير التي تعمل فيها الألفاظ.

وهذا من أعظم آثار نزول القرآن بالعربية: أنه لم يأخذ اللغة كما هي فقط، بل أعاد ترتيب سلم القيم داخلها. فاللفظ الذي كان يدور في فضاء الحياة الجاهلية صار يدور في فضاء الوحي، والكلمة التي كانت تُستعمل في المباهاة صارت تُستعمل في التزكية، والمعنى الذي كان أرضياً محدوداً صار موصولاً بالآخرة والجزاء والحساب والرضوان.

فكلمة **التقوى** مثلاً لم تعد مجرد حذرٍ أو اتقاءٍ عام، بل صارت أصلاً جامعاً لحياة المؤمن مع ربه؛ مراقبةً وخشيةً وامتثالاً وحفظاً للحدود. وكلمة **الهدى** لم تعد مجرد إرشادٍ إلى طريقٍ حسيٍّ أو رأيٍ صائب، بل صارت نوراً إلهياً يقود الإنسان إلى الحق. وكلمة **النور** لم تعد مجرد ضد الظلمة الحسية، بل صارت دلالةً على الكشف الإلهي الذي به يبصر القلب. وكلمة **الصراط** لم تعد مجرد طريق، بل صارت صورةً جامعةً للاستقامة والمصير والنجاة.

فالقرآن حين نزل عربياً لم يكن أسير المعجم السابق، بل كان حاكماً عليه، رافعاً له، ناقلاً له من أفقٍ إلى أفقٍ؛ وهذا معنى دقيق ينبغي أن يحضر في كل قراءة: القرآن يُفهم بالعربية، لكنه لا يُختزل في الاستعمالات العربية قبل الوحي، لأن الوحي حين يدخل على اللسان يمنحه سلطاناً جديداً، ويجعل ألفاظه جزءاً من منظومة هداية لا تُفهم إلا بردّ الكلمة إلى موضعها القرآني، لا إلى أصلها اللغوي وحده.

ومن هنا كان أهل العلم يعظمون شأن العربية في فهم القرآن، لا لأن العربية غايةٌ في نفسها، بل لأنها طريقٌ إلى مراد الله. وكل إضعافٍ للصلة بالعربية هو إضعافٌ لآلة الفهم، وكل استخفافٍ بدلالاتها هو فتحٌ لباب الانحراف في

التأويل، وكل محاولة لإخراج القرآن من لسانه هي محاولة، شعر صاحبها أو لم يشعر، لجعل النص قابلاً لأن يُعاد تشكيله على أهواءٍ لا تضبطها لغة التنزيل.

وكم من عوجٍ في الفهم بدأ من عوجٍ في التعامل مع اللسان؛ حين تُترك دلالة الكلمة كما تقتضيها العربية والسياق، ثم تُحمّل معنى غريباً عنها لأن العصر يطلبه، أو لأن الهوى يستحسنه، أو لأن صاحبه يريد أن يفرّ من تكليف النص. ومن هنا ندرك أن صيانة العربية ليست مسألة أدبية فقط، بل مسألة دينية؛ لأنها صيانةٌ لمدخل الفهم، وحفظٌ لطريق الحجة، وحراسةٌ للمعنى من أن يُسلَب باسم القراءة الجديدة أو التأويل المفتوح.

غير أن تعظيم العربية لا يعني أن كل من عرف العربية عرف القرآن؛ فهذا وهمٌ آخر. فالعربية آلهٌ عظيمة، لكنها لا تغني عن الإيمان، ولا عن التدبر، ولا عن معرفة مقاصد القرآن، ولا عن تلقيه بقلبٍ موقن. فقد يكون الإنسان بارعاً في اللسان، ضعيفاً في التسليم، فيرى من دقائق النحو ما لا يرى من نور الهداية، ويقف عند الإعراب ولا يعبر إلى الخشية، ويحصي الوجوه ولا يتأثر بالوجه الذي يطالبه بالتوبة.

فالقرآن يحتاج إلى لسانٍ يفهم، وقلبٍ يخضع. وإذا انفصل اللسان عن الخضوع، صارت المعرفة حجةً على صاحبها. وإذا انفصل الخضوع عن الفهم، وقع الإنسان في الاضطراب والخلط. والكمال أن يجتمع للمتلقي علم العربية، وتعظيم الوحي، وصدق الطلب، وخوف الله، حتى لا تكون اللغة حجاباً من نوعٍ آخر، بل جسراً إلى المعنى.

والعربية في القرآن تمتاز كذلك بأنها لغةٌ تجمع بين البيان والإيجاز؛ فالآية الواحدة قد تحمل من المعاني ما لا تستوفيه الصفحات، لا لأنها غامضة، بل لأنها مكثفة. وهذا هو الفرق بين الغموض والكثافة؛ فالغموض يحجب المعنى، أما الكثافة فتكشف له طبقات. القرآن مبين، لكنه ليس سطحياً؛ واضحٌ في هدايته، عميقٌ في أسرارهِ؛ قريبٌ من الفطرة، بعيد الغور لمن تدبر؛ يخاطب العامي بما يهديهِ، ويفتح للعالم من الوجوه ما يزيده خشية.

وهذه من أعجب خصائص العربية القرآنية: أنها تجمع بين القرب والعلو. يسمعها الأعرابي فيفهم منها أصل الهداية، ويتدبرها العالم فيرى فيها من دقائق النظم ما لا ينتهي. تخاطب القلب مباشرة، ثم تظل قابلةً للتأمل الطويل. وهذا ليس تناقضاً، بل كمالٌ في البيان؛ لأن كلام الله لا يجوز أن يكون مغلقاً على الناس، ولا أن يكون مستنفداً بأول نظر.

فالقرآن عربيٌّ مبين، لكنه لا يُستنفد؛ ظاهرٌ في هدايته، عميقٌ في دلالاتهِ؛ وهذه هي العربية حين تصير لساناً للوحي: لا تبقى لغةً مسطحةً تُفرغ معناها سريعاً، ولا تتحول إلى لغزٍ يختص به نخبةٌ معزولة، بل تقف بين الوضوح والعمق، بين البلاغ العام والفتح الخاص، بين هداية الجماعة وترقية المتدبرين.

ومن هنا نفهم أن عربيّاً في الآية ليست كلمةً واحدةً عابرة، بل بابٌ كامل: باب اللسان المختار، وباب البيان المبين، وباب إقامة الحجة، وباب ضبط التأويل، وباب الإعجاز، وباب تحويل اللغة إلى طريق تقوى.

وقد قيل كثيرًا إن العربية لغة القرآن، وهذا حق؛ لكن الأعمق أن نقول: إن القرآن أعاد تعريف العربية في أعلى مقاماتها، فأظهر أن اللغة حين تخدم الوحي تبلغ شرفها الأعظم، وأن البيان حين يخرج من سلطان الهوى ويدخل في سلطان الحق يصير عبادةً وهداية، وأن الكلمة إذا صدرت عن الله لم تعد مجرد لفظ يُفسَّر، بل صارت نورًا يُتلقى، وحجة تُقام، وميزانًا يُحتكم إليه.

إن العربية قبل القرآن كانت لغةً عظيمة، لكن القرآن جعلها لغةً خلودٍ في أفق الهداية. كانت لسان أمة، فصارت لسان كتابٍ يتلى إلى قيام الساعة. كانت تحمل الشعر والخطابة والحكمة، فصارت تحمل الوحي والشرع والذكر والنور. كانت تُظهر قدرة الإنسان على البيان، فصارت تُظهر عجز الإنسان أمام بيان الله.

وهنا يجب أن نفرق بين تعظيم العربية لأنها لغةٌ بشريةٌ ذات خصائص، وتعظيمها لأنها صارت لسان القرآن. الأول تقديرٌ لغوي، والثاني تعظيمٌ شرعيٌّ وعلمي؛ لأن شرفها الأعظم جاء من حملها للقرآن، لا من ذاتها المستقلة عن الوحي. فلا نعبد اللغة، ولا نجعلها مقامًا فوق مقام الوحي، ولكننا نعرف أنها صارت، باختيار الله، مفتاحًا من مفاتيح الكتاب، وأن من أراد القرآن من غير عربيته فقد طلب النور وقد أعرض عن مصباحه الأول.

وهذا لا ينتقص من شأن المسلمين غير العرب، بل يحمل الأمة كلها أمانة تعلم لسان القرآن بحسب القدرة والحاجة؛ لأن القرآن ليس ملكًا عرقيًا للعرب، بل هدىً للعالمين، والعربية ليست حاجزًا أمام العالمين، بل الباب الذي منه يدخلون إلى الأصل المحفوظ. ومن لم يعرف العربية ينتفع بالترجمة في

الجملة، ويهتدي بما يُنقل إليه من المعاني، لكن الترجمة تظل شرحًا لمعنى القرآن لا قرآنًا، وظلًا من ضلاله لا عينه؛ لأن القرآن هو هذا النظم العربي المعجز، وهذه الألفاظ التي نزل بها الوحي، وهذا البيان الذي لا ينفصل لفظه عن معناه.

وفي هذا الباب ينبغي أن تكون العبارة دقيقة: لا نقول إن رحمة القرآن محصورة في من يحسن العربية، ولا نقول إن الترجمة تغني عن العربية. بل نقول: هداية القرآن تبلغ الناس بقدر ما يصل إليهم من معناه، وأصل القرآن الذي به يُحتكم ويُتعبد ويُدرك إعجازه هو عربيته المنزلة.

وهذه الدقة تحفظ البابين: باب عالمية الهداية، وباب حرمة اللسان الذي نزل به الوحي.

وحين نتأمل علاقة العربية بالتقوى في الآية، نجد أن العربية ليست مجرد وسيلة فهم أولي، بل هي أداة لكشف الالتواء. فالكلام إذا كان مبيّنًا قطع طريق التحايل، وإذا كان مستقيمًا ضيق مسالك الهوى، وإذا كان محكمًا في دلالاته جعل الإنسان أمام التكليف مباشرة. ولهذا كانت العربية القرآنية تضع الإنسان أمام وضوح لا يرحمه من حيث التهرب، ولكنه يرحمه من حيث الهداية؛ فهي رحمة لأنها تبين، وحجة لأنها تبين.

إنّ من رحمة الله أن أنزل كتابه بلسانٍ مفهومٍ لأول مخاطبيه، ثم حفظ هذا اللسان في كتابه، وجعل الأمة تدور حوله قرونًا، تحفظه، وتفسره، وتستنبط منه، وتتعلم به كيف تعبد ربها. ومن آيات الحفظ أن العربية بقيت مشدودةً إلى القرآن، وأن القرآن بقي حافظًا لها في أعماق مستوياتها، حتى صار من

أراد العربية العليا لا بد أن يعود إلى القرآن، ومن أراد القرآن حقًا لا بد أن يتأدب مع عربيته.

ومن هنا يكون قوله تعالى: **(عَرَبِيًّا)** ليس وصفًا لسانيًا فحسب، بل إعلانًا عن أن الهداية جاءت في صورة بيان، وأن البيان جاء في صورة لسان، وأن اللسان المختار ليس منفصلًا عن مقصد التقوى، بل خادمٌ له، دالٌّ عليه، مقيمٌ لحجته.

فإذا قلنا: القرآن عربي، فنحن لا نقول فقط إنه نزل بهذه اللغة، بل نقول إن الله اختار للحق أن يتجلى في هذا النظم، وأن تظهر الهداية في هذه العبارة، وأن يؤخذ الإنسان من هذه الألفاظ إلى ما وراءها من الإيمان والعمل والخشية. فالعربية هنا بابٌ إلى الله، لا لأنها تُعبد، بل لأنها تحمل كلام من يُعبد؛ وطريقٌ إلى التقوى، لا لأنها تخلق التقوى بذاتها، بل لأن الوحي جعلها سبيلًا إلى الفهم الذي تقوم به التقوى.

وهكذا نصل إلى معنى الفصل كله: أن اللسان حين يصير مقامًا للبيان لا يعود مجرد أداة في يد الإنسان، بل يصير، حين يختاره الله للوحي، مجالًا تظهر فيه حكمة الله في الهداية. والعربية في القرآن بلغت هذا المقام؛ صارت لسانًا للحق، ومجالًا للإعجاز، ومفتاحًا للفهم، وحارسًا للمعنى، وجسرًا بين التلاوة والتقوى.

ومن لم يفهم هذا السر، نظر إلى العربية كأنها مسألة لغوية فحسب. ومن فهمه، أدرك أن كل حرفٍ في القرآن واقعٌ في موضعه بقدر، وأن كل لفظٍ

يخدم هداية، وأن كل تركيب يحمل من الاستقامة ما يردّ الإنسان من عوج النفس إلى صراط الله.

ولذلك كان لا بد، بعد هذا الفصل، أن ننتقل إلى التمييز الحاسم بين العربية من حيث هي لسانٌ بشريٌّ واسع، وبين البيان القرآني من حيث هو استعمالٌ إلهيٌّ لهذا اللسان؛ فليست كل عربية قرآنية، وإن كان القرآن عربيًّا، وليس كل بيان هاديًّا، وإن كان فصيحًا، وليس كل جمالٍ لغويٍّ طريقًا إلى التقوى، إلا إذا دخل في سلطان الحق، وسلم من العوج، وصار خادمًا للهداية.

الفصل الثالث

الفرق بين العربية والبيان القرآني

كلّ قرآن عربيّ، ولكن ليست كلّ عربية قرآنية.

هذه قاعدة مركزية في هذا الباب؛ لأن من لم يفرّق بين العربية بوصفها لساناً بشريّاً، وبين البيان القرآني بوصفه استعمالاً إلهياً لهذا اللسان، وقع في أحد خطأين: إمّا أن يختزل القرآن في مجرد ظاهرة لغوية عالية، فيراه نصّاً بليغاً من جنس كلام العرب وإن علا عليه في الرتبة، وإمّا أن يظن أن كل من امتلك أدوات العربية امتلك بالضرورة سرّ القرآن، وكأن معرفة الألفاظ والتراكيب تكفي وحدها للنفاذ إلى مراد الله.

والحق أن القرآن نزل بالعربية، لكنه لم يكن تابعاً لعربية البشر تبعية المقلد للسان سابق، بل جاء حاكماً عليها، رافعاً لها، مصححاً لمساراتها، ناقلًا ألفاظها من أفق التداول البشري إلى أفق الهداية الإلهية. لقد نزل من جنس ما يفهمون، ولكنه لم يكن من جنس ما يصنعون؛ واستعمل حروفهم، ولكنه لم يخضع لحدود قدرتهم؛ وجاء في لسانهم، ولكنه كشف لهم أن اللسان الذي يتكلمون به يمكن، حين يتكلم الله به وحيّاً، أن يبلغ مقاماً لا تبلغه العبقريّة البشرية ولو اجتمعت.

فالعربية، من حيث هي لغة، يمكن أن تستعمل في الصدق والكذب، وفي الحق والباطل، وفي الحكمة والسفه، وفي العدل والظلم، وفي التزكية والإغواء. قد

تكون بيتًا لشعرٍ شريف، وقد تكون وعاءً لهجاءٍ فاحش؛ قد تحمل موعظةً توقظ القلب، وقد تحمل خطبةً تهيج العصبية؛ قد تكون جسدًا للحكمة، وقد تكون لباسًا للمكر. أمّا البيان القرآني فليس مجرد استعمالٍ فصيحٍ للعربية، بل هو استعمالٌ ربانيٌّ للسانٍ بشريٍّ اختاره الله ليحمل كلامه، فصار اللفظ فيه محكومًا بالحق، والنظم محكومًا بالهداية، والجمال محكومًا بالتقوى، والدلالة محكومةً بمقام العبودية.

ولهذا ينبغي أن ننتبه إلى أن القرآن لم يقدّس كل كلامٍ عربي، ولم يجعل العربية بمجرد معيار الحق، ولم يقل إن الفصاحة تكفي صاحبها للهدى. فقد كان من العرب من بلغ في الفصاحة مبلغًا عاليًا ثم جحد، وكان منهم من سمع البيان القرآني فعرف أنه الحق ثم كابر، وكان منهم من استخدم اللسان نفسه في مقاومة الوحي، أو السخرية منه، أو صرف الناس عنه. فالعبرة ليست بأن يكون الكلام عربيًا فقط، بل بأن يكون مستقيمًا في الحق، سالمًا من العوج، خادمًا للهداية.

ومن هنا جاء الاقتران العظيم في الآية: (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ). لم يكتفِ الوصف بالعربية، لأن العربية وحدها لا تمنع العوج؛ فقد يكون الكلام عربيًا معوجّ المقصد، فصيحًا منحرف المعنى، بليغًا يخدم الهوى، مؤثرًا في الأسماع لكنه مفسدٌ للقلوب. فجاءت الجملة التالية لتكشف أن عربية القرآن ليست عربيةً مطلقةً سائبة، بل عربيةٌ مبرأةٌ من العوج، داخلةٌ في نظام الاستقامة، موصولةٌ بغاية التقوى.

وهذا الفرق بين العربية والبيان القرآني يشبه الفرق بين الماء في مجراه الطبيعي والماء إذا صار طهوراً في عبادة؛ فالمادة واحدة في أصلها، لكن المقام تغير. وكذلك اللفظ العربي حين يدخل في القرآن لا يبقى مجرد لفظ من معجم العرب، بل يصير آيةً، ويصير موضعاً للتلاوة، ويصير حجةً، ويصير جزءاً من خطابٍ محفوظٍ متعبدٍ بتلاوته، لا يملك أحدٌ أن يستبدله بما يقاربه، ولو ظن أنه يؤدي معناه.

خذ مثلاً كلمة الصراط. هي في أصلها تدل على الطريق، ولكنها في القرآن صارت أكثر من طريق لغوي؛ صارت صورةً جامعةً للاستقامة والعبودية والنجاة والمصير، حتى حين يقول المؤمن في كل ركعة: **(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)**، لا يطلب مجرد معرفة طريق، بل يطلب أن يُقيمه الله على طريق الحق الذي لا اعوجاج فيه، طريق الذين أنعم الله عليهم، لا طريق المغضوب عليهم ولا الضالين. هنا تحولت الكلمة من مدلولها العام إلى مقامٍ تعبدٍ يوميٍّ يصوغ وجدان المسلم ووجهته.

وكذلك كلمة النور. قد يعرفها اللسان العربي بوصفها ضد الظلمة، لكن القرآن يرفعها إلى معنى الهداية والكشف والحياة والبصيرة، فيقول: **(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** على وجهٍ يليق بجلال الله وتنزيهه، لا على معنى التشبيه ولا التجسيم، ويقول: **(قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)**، فيصير النور في القرآن ليس مجرد ظاهرة حسية، بل حقيقة هادية تكشف للإنسان طريقه، وتخرجه من ظلمات الجهل والشرك والغفلة إلى نور الإيمان والهدى.

وكذلك كلمة **التقوى**. هي في أصلها اتقاء ووقاية، ولكنها في القرآن صارت بنيةً كاملةً لحياة المؤمن: أن يجعل بينه وبين ما يسخط الله وقايةً من الإيمان والخشية والعمل الصالح، وأن يعيش بضميرٍ مراقبٍ لله، وأن لا يترك نفسه للغفلة والهوى. ولذلك لا يمكن أن تُفهم التقوى قرآنياً بمجرد أصلها اللغوي، بل لا بد أن تُفهم من مجموع استعمال القرآن لها، ومن مقامات الأمر بها، والثناء على أهلها، وبيان آثارها في الدنيا والآخرة.

وهذا يبيّن لنا أن القرآن لا يلغي الأصل اللغوي، ولكنه لا يُحبس فيه. الأصل اللغوي باب، والسياق القرآني دار، والنظم الإلهي أفقٌ أعلى. ومن وقف عند الباب ولم يدخل الدار ظن أنه عرف، وهو لم يتجاوز العتبة.

من هنا تنشأ خطورة بعض القراءات التي تريد أن تعيد القرآن إلى المعجم وحده، فتقول: هذه الكلمة في العربية تعني كذا، ثم تبني على هذا المعنى اللغوي العام تأويلًا يصادم بيان القرآن، أو يقطع الكلمة عن سياقها، أو يخرجها من شبكة استعمالها الشرعي. والحق أن اللفظ إذا دخل في نظام الوحي اكتسب تحديدًا وهدايةً ومقامًا لا يجوز رده إلى عمومه اللغوي على وجهٍ يهدم دلالاته القرآنية. فالعربية خادمةٌ لفهم القرآن، وليست حاكمةً عليه بمعزل عن بيانه وسياقه ومقاصده.

والقرآن نفسه يعلمنا هذا المنهج؛ فهو لا يترك الألفاظ تتحرك في الفراغ، بل يضعها في نسقٍ هادٍ، ويكررها في مواضع متعددة، ويربطها بصورٍ وأحكامٍ ومقاصد، حتى تصير للكلمة القرآنية شخصيةً دلاليةً لا تُدرك من القاموس

وحده. ومن هنا كان علم التفسير أوسع من علم اللغة، وكان التدبر أعمق من مجرد شرح المفردات، وكانت الهداية أرفع من الإحاطة بالنحو والصرف.

وليس معنى هذا أن اللغة قليلة الشأن؛ بل العكس تمامًا. إن تعظيم مقام البيان القرآني يقتضي تعظيم العربية من جهة كونها مدخلًا لازمًا، لكنه يمنع في الوقت نفسه من تأليه الأداة أو الاكتفاء بها. فاللغة مفتاح، لكنها ليست البيت كله؛ وهي طريق، لكنها لا تغني عن الوجهة؛ وهي آلة فهم، لكنها لا تضمن سلامة القلب. ومن عرف العربية ولم يعرف حرمة الوحي قد يفتح بالمفتاح بابًا ثم يدخل بعينٍ مريضة، فيرى من زخارف البناء ما لا يرى من نوره.

إنّ البيان القرآني ليس فصاحةً فحسب، بل فصاحةً مهتدية، وبلاغةً متعبدة، وجمالًا قائمًا بالقصد، ولفظًا لا ينفصل عن الحق. ولذلك لا تجد في القرآن لفظةً متفلته، ولا صورةً عبثية، ولا إيقاعًا للزينة المجردة، ولا تركيبًا يأتي ليُعجب ثم ينتهي. كل شيء في القرآن يعمل: الكلمة تعمل، والحرف يعمل، والفاصلة تعمل، والتقديم والتأخير يعملان، والحذف والذكر يعملان، والمثل والقصة والنداء والقسم والسؤال والجواب كلها تعمل في بناء الهداية.

وهذا معنى أن البيان القرآني ليس مجرد عربية، بل عربيةً داخلةً في هندسة الوحي. فحين يختار القرآن لفظًا دون آخر، لا يكون الاختيار لمحض الجمال الصوتي، وإن كان الجمال حاضرًا، ولا لمحض الفخامة اللفظية، وإن كان الجلال ظاهرًا، بل لأن اللفظة المختارة هي التي تؤدي المعنى في موضعه، وتحقق الأثر المقصود، وتنسجم مع نظام الآية والسورة، وتبلغ القلب كما ينبغي أن يبلغه الخطاب.

ومن هنا كان من العسير، بل من المحال، أن يُستبدل باللفظ القرآني لفظاً آخر يؤدي كل ما يؤديه. قد تقول كلمة قريبة في المعنى، لكنها لا تحمل الإيقاع نفسه، ولا الظل نفسه، ولا العلاقة نفسها، ولا الموقع نفسه، ولا الأثر نفسه. وهذا هو سرّ الإعجاز في مستوى الاختيار: أن الكلمة القرآنية تبدو مألوفة من جهة اللغة، لكنها فريدة من جهة الموضع.

وهنا نصل إلى فرق آخر بين العربية والبيان القرآني: العربية قد تتسع للتعدد حتى يبلغ حدّ الاحتمال الواسع، أما البيان القرآني فيضبط هذا الاتساع بالهداية. اللغة، في ذاتها، قد تفتح أبواباً متعددة للمعنى، لكن القرآن لا يترك هذه الأبواب مشرعةً للعبث، بل يقودك بسياقه ونظمه ومقاصده إلى المعنى الذي يخدم الهداية. ولذلك كان السياق في القرآن من أعظم الحراس على الدلالة، لأنه يمنع الكلمة من أن تُختطف من موضعها، ويمنع القارئ من أن يجعلها أداةً لهواه.

وكم من كلمة قرآنية ظلمت حين اقتُلعت من سياقها، وكم من آية أُدخل عليها العوج حين قُرئت بمعزل عما قبلها وما بعدها، وكم من معنى فسد لأن صاحبه أخذ من العربية احتمالاً لغوياً ثم جعله مرادفاً قرآنياً بلا قرينة. وهذا بابٌ خطير؛ لأن الاحتمال اللغوي ليس دائماً معنىً تفسيريّاً راجحاً، والقدرة على توجيه اللفظ لا تعني أن هذا التوجيه هو مراد الله.

فالبيان القرآني يعلمنا الانضباط، لا الانفلات؛ يفتح للمتدبر آفاقاً، لكنه لا يتركه بلا قيود؛ يعطيه طبقاتٍ من المعنى، لكنه لا يسمح له بأن يهدم الأصل؛ يدعوه إلى النظر، لكنه يلزمه بالأدب. ومن هنا كان الفرق بين التدبر والعبث: التدبر

يطلب مراد الله ويتحرك داخل حرمة النص، أما العبث فيطلب مراد النفس ثم يجرّ النص إليه.

ولذلك فإن قولنا: ليست كل عربية قرآنية يعني أن القرآن لم يأخذ من العربية كل استعمالاتها، ولا كل مجازاتها، ولا كل أهوائها، بل أخذ اللسان ورفعها إلى مقام الوحي. فالقرآن عربي في حروفه وألفاظه ونظمه، لكنه رباني في مصدره وهدايته وسلطانه. فلا يجوز أن نعامله كما نعامل قصيدة، ولا أن نقرأه كما نقرأ خطبة، ولا أن نزن أثره بموازين الأدب وحدها؛ لأنه، وإن خاطب الذوق، لا يقف عند الذوق، وإن بهر السمع، لا يطلب السمع وحده، وإن جرى في العربية، لا يُردّ إلى طاقة العرب.

ومن هنا نفهم لماذا كان العرب الأوائل إذا سمعوه اضطربوا: ليس لأنهم لم يفهموه، بل لأنهم فهموا منه أكثر مما أرادوا أن يعترفوا به. كان البيان واضحًا، والحجة نافذة، والنظم خارجًا عن طاقتهم، والمعنى يلاحقهم في أعماقهم. وهذا هو أثر البيان القرآني: أنه لا يترك السامع في أمانٍ نفسيٍّ كاذب، بل يوقظه، ويكشفه، ويفضح داخله، ويطالبه بموقف.

أما العربية البشرية، فقد تترك السامع معجبًا أو متأثرًا أو مطروبًا، ثم ينصرف وقد بقي كما كان. أمّا البيان القرآني، إذا دخل القلب، فإنه يغيّر موضع الإنسان من نفسه. يجعله يرى ذنبه، ومصيره، وضعفه، وحاجته، وربّه، والآخرة. ولذلك ليس غريبًا أن تختم الآية بـ (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)؛ لأنّ البيان القرآني ليس غايته أن يصنع ذوقًا لغويًا، بل ضميرًا متقيا.

ومن هنا يكون الجمال القرآني جمالاً مسؤولاً. في كلام البشر قد يكون الجمال مستقلاً عن الأخلاق؛ قد تكون العبارة جميلة وهي تخدم باطلاً، وقد تكون الصورة مدهشة وهي تضلل، وقد تكون الفصاحة عالية وهي تزين شهوة أو ظلمًا أو كبرًا. أما في القرآن فالجمال لا ينفصل عن الحق، والبلاغة لا تنفصل عن الهداية، والتأثير لا ينفصل عن التزكية. ولذلك فالبيان القرآني يطهر مفهوم الجمال نفسه، ويردّه إلى وظيفته العليا: أن يكون طريقًا إلى الله، لا ستارًا على الهوى.

وهذا فرقٌ حاسم؛ لأن بعض الناس يقف عند جمال القرآن وقفة المتذوق، فيقول: ما أجمل هذا النظم، وما أرق هذه العبارة، وما أعظم هذا التصوير، ثم لا ينتقل من الجمال إلى الخضوع. وهذه وقفة ناقصة؛ فالقرآن لا يمنعك أن تذوق جماله، بل يدعوك إلى ذلك، ولكن جماله ليس موضعًا للفرجة، بل مدخلٌ إلى الطاعة. إنّ من لم ينتقل من جمال البيان إلى جلال التكليف، فقد وقف عند الباب ولم يدخل.

فالقرآن يريد من العربي حين يسمع عربيته أن يقول: هذا حق فاتبعته، لا أن يقول فقط: هذا جميل فأعجبني. ويريد من غير العربي حين يبلغه معناه أن يدرك أن وراء هذا الكتاب لسانًا محفوظًا ونظمًا معجزًا، فيقترب منه بقدر استطاعته، ويعلم أن الترجمة تنقل له قبسًا من المعنى، أما عين القرآن فهي في اللفظ العربي المنزل.

وبهذا يظهر أن البيان القرآني يجمع بين ثلاث خصائص لا تجتمع في غيره على هذا الوجه: ربانية المصدر، وعربية اللسان، وهداية المقصد. فإذا

أخذت العربية وحدها فقد أخذت الأداة، وإذا أخذت الهداية دون احترام اللسان فقد عرضت المعنى للانفلات، وإذا تكلمت عن المصدر دون تدبر البيان فقد فاتك وجه من وجوه الإعجاز. والكمال أن ترى الثلاثة في وحدة واحدة: كلام الله، بلسان عربي مبين، لهداية الإنسان إلى التقوى.

وهذا يعيدنا إلى الآية مرة أخرى: **(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**. فليست العربية هنا منفصلة عن نفي العوج، وليست نفي العوج منفصلاً عن غاية التقوى، وليست التقوى منفصلة عن كون الخطاب قرآنًا. إننا أمام بناء كامل: كلامٌ متلو، بلسانٍ مبين، مستقيمٌ في ذاته، مقصوده أن يستقيم به الإنسان.

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا كانت كل محاولة لفصل القرآن عن عربيته ليست مجرد مسألة لغوية، بل مسألة تمسّ بنية الهداية نفسها. فإذا قيل إن المعنى القرآني يمكن أن يُعاد تشكيله بعيداً عن اللسان الذي نزل به، فقد فُتح الباب لعوجٍ لا ينتهي؛ لأن النص حين يُخلع من لغته يصير عرضةً لأن تتنازعه الأزمنة والأهواء والمذاهب بلا ضابط. وليس المقصود أن المعاني لا تُشرح بلغات أخرى، بل المقصود أن الأصل الحاكم يبقى هو اللفظ العربي المنزل، وأن كل شرح أو ترجمة أو قراءة تُوزن به، ولا يوزن هو بها.

ولذلك كان حفظ العربية من حفظ القرآن من جهة الفهم، كما أن حفظ اللفظ من حفظ القرآن من جهة التلاوة. وقد تكفل الله بحفظ كتابه، ومن آثار هذا الحفظ أن بقيت الأمة تحفظ لسانه، وتبني علومها حوله، من تفسيرٍ ونحوٍ

وبلاغة وأصول وقراءات، لا لأنها تقدّس الأدوات لذاتها، بل لأنها تعلم أن الطريق إلى مراد الله يحتاج إلى مفاتيح مأمونة.

غير أن هذا كله لا ينبغي أن يحوّل العربية إلى حجابٍ نخبويٍّ يمنع عامة الناس من القرآن؛ فالقرآن نزل هدىً للناس، والعربية القرآنية، مع علوها، فيها من البيان والوضوح ما يخاطب الفطرة. ولكن الواجب أن يُفرّق بين أصل الهداية الذي يدركه الناس، وبين دقائق الاستنباط والتأويل التي تحتاج إلى علم. فالطفل قد يفهم من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾ معنى الاستقامة، لكن العالم يرى في الآية من الجلال والتكليف والسياق ما يزيده فقهاً وخشية. وهذا من رحمة القرآن: يعطي كل قلبٍ بقدر صدقه وسعته، ولا ينفد عطاؤه.

ومن هنا تكون العربية القرآنية لغةً جامعة: لا تحتكرها النخبة، ولا تستباح للعبث؛ لا تُغلق في وجه العامة، ولا تُترك فوضى للمتلاعبين. هي بيانٌ للناس، لكنها أيضاً علمٌ يحتاج إلى رعاية، وهي هدايةٌ قريبة، لكنها ذات أعماقٍ لا تنتهي.

إن الفرق بين العربية والبيان القرآني يعلم الكاتب والمتكلم والمؤمن درساً عظيماً: أن اللغة لا تشرف بمجرد فصاحتها، بل بما تخدمه. قد تكون العبارة عاليةً في البلاغة، ساقطةً في المقصد؛ وقد تكون مزخرفةً في اللفظ، معوجةً في الحق؛ وقد تكون نافذةً في التأثير، مفسدةً في المآل. أما القرآن فيعلّمنا أن الكلمة لا تبلغ كمالها حتى تكون صادقةً، مستقيمةً، هاديةً، متصلةً بالتقوى.

وهذا درسٌ يحتاجه زمننا بشدة؛ زمنٌ صارت فيه اللغة أحياناً مصنعةً للتضليل، تُسمّى الأشياء بغير أسمائها، ويُزَيّن الباطل بمفردات براقة، ويُخفى

الظلم تحت عبارات ناعمة، وتُصنع القناعات بتلاعب المصطلحات. وفي مثل هذا الزمن يصبح الرجوع إلى البيان القرآني رجوعاً إلى طهارة الكلمة، وإلى شرف الدلالة، وإلى ميزانٍ لا يسمح للغة أن تتحول إلى خادمة للهوى.

فالقرآن لا يعلمنا فقط ماذا نعتقد، بل يعلمنا كيف نحترم المعنى؛ ولا يعلمنا فقط ماذا نقول، بل يعلمنا أن الكلمة أمانة؛ ولا يعلمنا فقط أن نتكلم بالعربية، بل أن نطلب في العربية قدرًا من الاستقامة التي تليق بمن يتلو كتابًا غير ذي عوج.

ومن هنا نصل إلى خلاصة هذا الفصل: العربية هي اللسان، أما البيان القرآني فهو اللسان حين يدخل في سلطان الوحي؛ العربية أداة، أما القرآن فهو الهداية التي شرفت الأداة؛ العربية قد تحمل العوج، أما القرآن فعربيٌّ غير ذي عوج؛ العربية قد تُستعمل للهوى، أما القرآن فاستعملها للحق؛ العربية قد تُطرب السمع، أما البيان القرآني فيوقظ القلب؛ العربية قد تُنشئ أدبًا، أما القرآن فينشئ تقوى.

وبهذا يظهر أن قوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾ لا يفهم على وجهه الأعلى إلا إذا قرئ مع قوله: ﴿غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾؛ لأن العربية في القرآن ليست مجرد لغة، بل لغة مستقيمة بالوحي، محروسة بالحق، هادية إلى التقوى.

وفي الفصل القادم نقف عند هذه العبارة العجيبة: ﴿غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾، لنرى كيف ينفي القرآن عن نفسه كل ميلٍ واضطراب، لا في اللفظ وحده، بل في المنهج، والمقصد، والحجة، والطريق، وكيف تكون استقامة الخطاب أصلًا في استقامة الإنسان.

الفصل الرابع

غَيْرَ ذِي عَوْجٍ؛ اسْتِقَامَةُ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى وَالطَّرِيقِ

بعد أن وصف الله تعالى كتابه بأنه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، جاء الوصف الثالث كأنه حارسٌ على الوصفين قبله، وكأنه الميزان الذي يمنع أن تُفهم العربية القرآنية فهمًا ناقصًا أو سطحيًا، فقال سبحانه: ﴿غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾.

وهذه العبارة ليست مجرد نفيٍ لخللٍ لفظيٍّ، ولا إخبارًا بأن القرآن واضح العبارة فحسب، بل هي إعلانٌ كليٌّ عن استقامة القرآن في بنيته كلها: في لفظه، ومعناه، ونظمه، وحجته، ومقصده، وطريقه، وآثاره، وما يدعو إليه، وما ينهى عنه، وما يكشفه من حقائق الغيب والشهادة، وما يقيمه من ميزانٍ بين الإنسان وربه ونفسه والناس والحياة والمصير.

فالقرآن ليس فيه عوج؛ لأنه من عند الله، وكلام الله لا يعتريه نقص البشر، ولا اضطراب البشر، ولا جهل البشر، ولا هوى البشر. وليس فيه عوج؛ لأنه لا يقول شيئًا ثم يهدمه في موضعٍ آخر، ولا يفتح بابًا للهداية ثم يترك الإنسان في التيه، ولا يثير السؤال ثم يقطع الطريق إلى الجواب، ولا يقرّر حقيقةً ثم يجعلها معلّقةً على ظنون متقلبة. وليس فيه عوج؛ لأن خبره صدق، وأمره عدل، ووعدده حق، ووعيده حق، وطريقه مستقيم، وميزانه لا يحابي أحدًا.

والعوج في الكلام قد يكون ظاهرًا وقد يكون خفيًا. قد يكون في اللفظ حين يضطرب البناء وتلتبس العبارة، وقد يكون في المعنى حين ينحرف التصور

عن الحق، وقد يكون في المقصد حين تُستعمل الكلمة لتزيين الباطل، وقد يكون في المنهج حين تُفتح المسالك للهوى باسم الفهم، وقد يكون في الأثر حين يورث الكلام صاحبه كبراً أو حيرةً أو عبثاً لا هدايةً ولا تقوى.

أما القرآن فنفى الله عنه العوج نفياً جامعاً؛ فهو ليس معوجّ اللفظ بحيث يوقع السامع في حيرةٍ بلا بيان، ولا معوجّ المعنى بحيث يقود العقل إلى تناقض، ولا معوجّ الغاية بحيث يلبس لباس الحق وهو يخدم هوى، ولا معوجّ الأثر بحيث يترك القلب في ظلمة بعد أن يزعم أنه هداية. بل هو كتابٌ إذا اتُّبع أقام الإنسان، وإذا تُدبر كشف الطريق، وإذا حُكّم أنصف، وإذا تُلي على قلبٍ حيٍّ رده إلى الله.

وهنا يظهر سرّ دقيق في التعبير: لم يقل النص فقط: مستقيماً، بل قال: (غَيْرَ ذِي عَوْجٍ)؛ لأن نفي العوج يفيد براءةً كاملةً من كل صورةٍ من صور الميل والانحراف، كأن القرآن لا يكتفي بأن يثبت لنفسه الاستقامة، بل يطارده احتمال العوج من أصله، وينفي أن يكون فيه مدخلٌ يمر منه اضطراب، أو فجوةٌ يتسلل منها باطل، أو التواءٌ يجد فيه صاحب الهوى عذراً.

فهو مستقيمٌ في ذاته، ومقيمٌ لغيره. وهذه منزلةٌ أعلى: أن يكون الخطاب مستقيماً في بنائه، ثم تكون له قدرةٌ على تقويم من يتلقاه. فقد يكون الكلام واضحاً لكنه لا يُصلح، وقد يكون منظماً لكنه لا يهدي، وقد يكون محكماً في منطقته لكنه باردٌ لا يلامس موضع الخلل في الإنسان. أما القرآن فاستقامته ليست صفةً جامدة، بل قوةٌ هادية؛ لأنه لا يخبرك عن الصراط فقط، بل

يدعوك إليه، ويحاسبك على الميل عنه، ويكشف لك عواقب العوج في الدنيا والآخرة.

ومن أعجب ما في هذه الآية أن نفي العوج جاء بين العربية والتقوى: ﴿عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. وكأن الطريق إلى التقوى لا يمرّ عبر العربية وحدها، بل عبر العربية المستقيمة، العربية المحروسة من الانحراف، العربية التي لا تلبس الحق بالباطل، ولا تسمح للبيان أن يتحول إلى مكر، ولا للجمال أن يصير خداعاً، ولا للفصاحة أن تخدم فساد القلب.

فكم من كلامٍ عربيٍّ لا عيب في فصاحته، لكنه معوجّ في مقصده. وكم من عبارةٍ مذهشةٍ في صنعتها، لكنها تميل بالإنسان عن الحق. وكم من بيانٍ براقٍ يفتح للهوى أبواباً ويغلق على النفس أبواب التقوى. ولهذا كان لا بد أن يقال عن القرآن: ﴿غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾، حتى لا يظن أحد أن المقصود مجرد اللسان، بل المقصود لسانٌ صار في الوحي طريق استقامة.

والاستقامة في القرآن ليست جموداً ولا فقراً في الدلالة، بل هي غنى منضبط. فالقرآن واسع المعاني، عميق الدلالات، متجدد العطاء، لكنه لا يتناقض، ولا ينفلت، ولا يُسلم نفسه للفوضى. فيه طبقاتٌ من الفهم، لكن هذه الطبقات لا تهدم أصل المعنى؛ وفيه آفاقٌ للتدبر، لكن هذه الآفاق لا تتقلب على ظاهر الهداية؛ وفيه إشاراتٌ دقيقة، لكن الإشارة فيه لا تبتلع العبارة، ولا يلغي الذوق فيه حكم البيان.

وهنا ينبغي أن نفرّق بين العمق والعوج. العمق أن يكون للمعنى أغوارٌ لا تنتهي مع بقاء الطريق واضحاً، أما العوج فهو أن يضيع الطريق باسم العمق.

العمق القرآني يزيدك رسوخًا في الحق، أما العوج التأويلي فيزيدك قدرةً على الهروب من الحق. العمق يفتح القلب على التقوى، أما العوج فيفتح الذهن على الحيلة. ولذلك كان القرآن عميقًا غير معوج، واسعًا غير منفلت، غنيًا غير متناقض، ميسرًا للهداية غير مبتذل في الدلالة.

إن من أعظم صور العوج أن يتحول الكلام من طريقٍ إلى الحق إلى طريقٍ للفرار منه. والقرآن يغلق هذا الباب؛ لأنه يواجه الإنسان بوضوحٍ لا يسمح له أن يختبئ طويلاً خلف الغموض. فإذا قال: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾، فالخطاب واضح. وإذا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾، فالحد واضح. وإذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، فالميزان واضح. وإذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، فـ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، فالمسؤولية واضحة.

لكن وضوح القرآن لا يعني سطحية الخطاب؛ بل يعني أن أصل الطريق بين، وأن عمق المعنى لا يُستعمل لإلغاء التكليف. ومن هنا كان القرآن أرحم بالإنسان من كثير من خطابات البشر؛ لأنه لا يتركه في ضباب المصطلحات، ولا يرهقه بتعقيد مصطنع، ولا يجعل النجاة حكرًا على من يحسن الالتفاف حول العبارة، بل يفتح له أصل الهدى بوضوح، ثم يدعوه إلى مراتب أعلى من التدبر واليقين.

وإذا كان القرآن غير ذي عوج، فإن أول ما يقتضيه ذلك أن يكون معيارًا نرد إليه عوج أنفسنا. فالإنسان لا يرى اعوجاجه دائمًا؛ قد يألف ميله حتى يظنه استقامة، وقد يتربى على عادةٍ فاسدة حتى يراها حقًا، وقد يبرر شهوته حتى تبدو في نظره رأيًا، وقد يلبس مصلحته لباس المبدأ، وقد يجعل خوفه حكمة،

وضغفه حلمًا، وكبره عزة، وانتقامه غيرَةً للحق. وهنا يأتي القرآن؛ لا يجامل النفس في أسمائها المزيفة، بل يكشفها، ويعيد تسمية الأشياء بأسمائها، ويقيم الميزان أمام القلب.

فالقرآن غير ذي عوج لأنه لا يسمح للنفس أن تعيد تشكيل الحق على مقاسها. إنه يطلب من الإنسان أن يستقيم هو على الوحي، لا أن يُعوج الوحي ليلائم ميله. وهذه من أشد معارك الإنسان مع القرآن: أن يقرأه ليهتدي به، لا ليبحت فيه عما يؤيد هواه؛ أن يقف تحت سلطانه، لا أن يجلس فوقه قاضيًا؛ أن يسأل: ماذا يريد الله مني؟ لا: كيف أجعل النص يقول ما أريد؟

ومن هنا نفهم أن نفي العوج عن القرآن يتضمن إثبات العوج الممكن في المتلقين. فالقرآن مستقيم، لكن النفوس قد تميل؛ والبيان واضح، لكن الأهواء قد تعمي؛ والطريق بيّن، لكن الإنسان قد يختار الالتفاف. ولذلك ليست المشكلة في القرآن، بل في القلب الذي يستقبل القرآن. قد يدخل النور بيتًا مفتوحًا فيضيئه، ويدخل بيتًا مغلقًا فيبقى صاحبه يشتكي الظلمة لا لأن النور ناقص، بل لأن الباب موصد.

ولهذا كان وصف القرآن بأنه غير ذي عوج ليس وصفًا يطمئن القارئ فقط، بل وصفًا يحمله المسؤولية؛ فإذا كان الكتاب مستقيمًا، فلا تعلل انحرافك بغموض الطريق؛ وإذا كانت الحجة بيّنة، فلا تجعل تقصيرك نتيجة التباس المعنى؛ وإذا كان البيان محكمًا، فلا تطلب من الكلمات ممراتٍ تهرب بها من التكليف.

وهذه هي الصلة العميقة بين غير ذي عوج ولعلهم يتقون. فالتقوى لا تنشأ إلا حين تسقط أعدار الالتواء. والإنسان إذا وجد في الكلام عوجًا، أو وجد في الطريق ضبابًا، أو وجد في الحجة اضطرابًا، أمكنه أن يتردد أو يعتذر أو ينتظر. أما حين يأتيه القرآن غير ذي عوج، فقد صار أمام خطابٍ يطلب منه جوابًا أخلاقيًا وروحيًا: هل تنقي أم لا؟ هل تخضع أم تكابر؟ هل تستقيم أم تبقى مع ميلك القديم؟

إن التقوى في جوهرها استقامةٌ داخلية قبل أن تكون مظهرًا خارجيًا؛ هي أن يجعل الإنسان بينه وبين سخط الله وقاية، ولا تكون هذه الوقاية إلا إذا عرف مواضع الخطر، ولا يعرفها حقًا إلا ببيان لا عوج فيه. فالقرآن يكشف للإنسان أين يبدأ الانحراف: في نظرة، أو كلمة، أو نية، أو شهوة، أو ظلم صغير، أو ميل خفي، أو تسويف طويل. إنه لا ينتظر حتى يصير العوج سقوطًا عظيمًا، بل يكشف بدايات الميل قبل أن تستحكم.

وهذه من رحمة القرآن: أنه لا يكتفي بأن يحكم على النهايات، بل يعالج المقدمات. يقول: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، فينبهك إلى أن الشر لا يأتي دفعةً واحدة، بل خطوات. ويقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾، فلا ينهى عن الفعل وحده، بل عن الطرق التي تقود إليه. ويقول: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، فيكشف عوج اللسان حين يتحول الكلام إلى أكلٍ معنويٍّ للغائب. ويقول: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فيقاوم عوج الميزان في العلاقات والمعاملات.

فهو كتابٌ لا عوج فيه لأنه يقاوم العوج في كل جهة من جهات الإنسان: في الاعتقاد، حتى لا يشرك؛ وفي العبادة، حتى لا يرأى؛ وفي الأخلاق، حتى لا

يظلم؛ وفي اللسان، حتى لا يكذب؛ وفي المال، حتى لا يطغى؛ وفي القوة، حتى لا تستبد؛ وفي الضعف، حتى لا يذل لغير الله؛ وفي العلم، حتى لا يتكبر؛ وفي الجهل، حتى لا يدّعي.

وبهذا المعنى، فإن القرآن لا يصف نفسه فقط بأنه غير ذي عوج، بل يدخل إلى عالم الإنسان ليجعل حياته أقلّ عوجًا، وفكره أقلّ اضطرابًا، ولسانه أقرب إلى الصدق، وقلبه أقرب إلى الخشية، وسلوكه أقرب إلى العدل.

ومن أعظم العوج في حياة الإنسان عوج التصور؛ لأن التصور إذا مال مالت بعده الأعمال. فإذا رأى الإنسان الدنيا غايةً نهائيةً، عاش لها واستهلك عمره في خدمتها. وإذا رأى الموت فناءً مطلقًا، ضعفت عنده مسؤولية المصير. وإذا رأى نفسه مالكاً مستقلاً، طغى. وإذا رأى النعمة حقًا ذاتيًا له، بخل وتكبر. وإذا رأى القوة معيار الكرامة، ظلم. وإذا رأى اللذة معيار الخير، انحدر.

فيأتي القرآن فيقوم التصور من جذره: الدنيا دار ابتلاء لا دار بقاء، والموت انتقال لا عدم، والإنسان عبد لا إله، والنعمة أمانة لا ملكٌ مطلق، والقوة مسؤولية لا رخصة ظلم، واللذة ليست معيار الحق، والآخرة هي الميزان الذي يكشف حقيقة ما كان يلمع في الدنيا.

ومن هنا كان القرآن غير ذي عوج لأنه يقيم الرؤية الكبرى للوجود. لا يترك الإنسان موزعًا بين فلسفات متناقضة، ولا بين رغبات النفس وضغط المجتمع، ولا بين ظاهر الدنيا وحقيقة الآخرة. إنه يمنحه بوصلةً عظيمةً: من الله البدء، وإلى الله الرجوع، وبينهما ابتلاءٌ وعبوديةٌ ومسؤوليةٌ.

وإذا استقام التصور، أمكن أن يستقيم السلوك. أما إذا اعوج التصور، فقد يكثر الكلام عن الأخلاق ولا تقوم الأخلاق؛ لأن الأصل الذي تحمل عليه الأخلاق قد فسد. فالقرآن لا يعالج الفروع قبل الأصول، ولا يزيّن السلوك من خارجه فقط، بل يقيم داخله على معرفة الله واليوم الآخر والجزاء والعبودية.

ولهذا كان نفي العوج عن القرآن نفيًا للفوضى في المعايير. ففي القرآن لا تتبدل القيم بحسب القوة والضعف، ولا يصير الظلم عدلاً إذا مارسه القوي، ولا يصبح الباطل حقاً إذا كثر أتباعه، ولا تصير الشهوة حريةً إذا زُخرفت لها الأسماء، ولا يصير الخداع ذكاءً إذا نجح صاحبه مؤقتاً. القرآن يسمّي الأشياء بأسمائها أمام الله، لا أمام تصفيق الناس.

وهذه الاستقامة في التسمية من أعظم مظاهر عدم العوج. فاللغة البشرية قد تنحرف حين تغيّر أسماء الأشياء لتغيير أحكامها في الوعي؛ قد يُسمى الربا فائدة، والزنا علاقة، والظلم ضرورة، والجبن حكمة، والخيانة مصلحة، والكبر ثقة، والهوى حرية. أما القرآن فيعيد الكلمة إلى حقيقتها، ويخلع عنها زينة التضليل، ويجعل الإنسان يرى الفعل في ميزان الله لا في قاموس الهوى.

ومن هنا فإن القرآن غير ذي عوج لأنه يحرس اللغة من أن تصبح خادمة للانحراف. وهذا يعود بنا إلى موضوع الكتاب كله: علاقة العربية بالتقوى. فاللغة إذا اعوجت اعوج الوعي، وإذا صار اللفظ ستاراً على الباطل ضعف إدراك الناس للحق، وإذا أُفسدت المصطلحات أُفسدت الضمائر. والقرآن، بعربيته المستقيمة، يعيد إلى اللغة طهارتها الأولى: أن تقول الحق، وأن تكشف لا أن تحجب، وأن تهدي لا أن تضل.

ولا يعني هذا أن القرآن يخاطب الإنسان بعباراتٍ جافةٍ مجردة؛ بل هو في أعلى درجات الجمال، لكن جماله مستقيم. فيه التصوير، والمثل، والقصة، والإيقاع، والحوار، والسؤال، والقسم، والوعد، والوعيد، لكنه لا يستعمل شيئاً من ذلك للزخرفة الخالية. كل جمالٍ فيه قائمٌ بوظيفة، وكل صورةٍ فيه تفتح معنى، وكل إيقاعٍ فيه يخدم مقاماً، وكل مثلٍ فيه يقرب حقيقة، وكل قصةٍ فيه تهدي إلى سنن الله في الإنسان والتاريخ.

فهو غير ذي عوج حتى في جماله؛ لأن الجمال في كلام البشر قد يجر إلى الغرور أو التلهي أو المتعة المنفصلة عن الحق، أما جمال القرآن فيردك إلى الله. قد يدهشك أولاً، لكنه لا يتركك في الدهشة؛ يأخذك منها إلى الخشية. وقد يسحر سمعك، لكنه لا يريد أسر السمع فقط؛ يريد تحرير القلب من غير الله. وقد يفتح أمامك الصور، لكنه لا يتركك في الصورة؛ ينقلك إلى البصيرة.

وهذا معنى عظيم: القرآن لا يخاصم الجمال، بل يطهره من العوج. لا يطرد البلاغة، بل يجعلها في خدمة الهداية. لا يزدري اللغة، بل يرفعها إلى أن تكون طريقاً للتقوى.

وقد يكون العوج في النصوص البشرية ناشئاً من محدودية الإنسان؛ فهو لا يعلم كل شيء، ولا يرى العواقب كلها، ولا يسلم من الهوى، ولا يحيط بالنفس البشرية إحاطةً كاملة، ولا يعرف الغيب، ولا يملك أن يزن المصالح كلها بميزانٍ مطلق. لذلك قد يضع نظريةً ثم ينقضها الزمن، أو يرفع قيمةً ثم يكتشف فساد آثارها، أو يظن أنه يصلح فيفتح باباً لفسادٍ أعظم. أما القرآن فمن

عند العليم الحكيم، ولذلك تأتي استقامته من كمال علم الله وحكمته، لا من اجتهادٍ بشري قابلٍ للنقص.

ولهذا كان القرآن صالحًا للهداية في كل زمان لا لأنه يتشكل مع كل زمان كيفما شاء الناس، بل لأنه يحمل من الاستقامة ما يحاكم به كل زمان. فليس معنى خلوده أن يُطَوَّع لأهواء العصور، بل أن يبقى ميزانًا فوق العصور، يراجعها، ويكشف عوجها، ويميز ما فيها من حق وباطل. وكل عصرٍ له عوجه الخاص، والقرآن يواجه عوج كل عصرٍ باستقامة الوحي.

في عصرٍ يطغى فيه المال، يرد القرآن الإنسان إلى أن المال فتنة وأمانة. وفي عصرٍ تُعبد فيه الشهوة، يردّه إلى الطهارة والعفة. وفي عصرٍ تتضخم فيه الذات، يردّه إلى العبودية والتواضع. وفي عصرٍ تختل فيه اللغة، يردّه إلى صدق الكلمة. وفي عصرٍ تكثر فيه الحيرة، يردّه إلى الصراط المستقيم.

وهنا يصبح وصف **(غَيْرِ ذِي عِوَجٍ)** وصفًا حيًّا لا تاريخيًّا؛ فنحن لا نقراه كأنه خبرٌ عن كتابٍ نزل ثم انتهى أثره، بل كحقيقة قائمة في كل لحظة. كلما اعوجت بنا السبل، كان القرآن هو المستقيم. كلما التبست الأسماء، كان القرآن هو الكاشف. كلما مالت النفوس، كان القرآن هو المقوم. كلما صنعت الحضارات لنفسها أوهامًا براقّة، جاء القرآن ليعيد السؤال الأول: أين الله في وعيك؟ أين الآخرة في حسابك؟ أين العدل في قوتك؟ أين التقوى في اختيارك؟

ومن هنا فإن الإيمان بأن القرآن غير ذي عوج ليس مجرد عقيدة نظرية، بل موقفٌ عملي. معناه أن المؤمن يجعل القرآن مرجعه الأعلى، وأنه إذا تعارض ميله مع الآية اتهم ميله لا الآية، وإذا ضاق صدره بحكمٍ من أحكام الله علم أن

الضيق في صدره لا في حكم الله، وإذا عجز عقله عن الإحاطة بحكمة من الحكم لم يجعل عجزه حاكمًا على الوحي، بل علم أن علم الله أوسع، وأن العبودية تقتضي التسليم مع طلب الفهم.

وهذا التسليم ليس تعطيلاً للعقل، بل وضعٌ للعقل في موضعه الصحيح. فالعقل يهتدي بالوحي، ويتدبره، ويفهم دلالته، ويكتشف حكمه، لكنه لا يجلس فوقه كأنه أوسع علمًا من خالقه. ومن أعظم العوج أن يتحول العقل من أداة فهمٍ للوحي إلى سلطةٍ تحاكم الوحي بمحدوديتها. أما الاستقامة فهي أن يعمل العقل تحت نور الوحي، لا خارجه ولا فوقه.

ومن هنا نفهم أن القرآن غير ذي عوج في علاقته بالعقل أيضًا؛ فهو لا يحتقر العقل، ولا يطلقه بلا حدود؛ لا يدعوّه إلى الإيمان الأعمى، ولا يسلمه إلى الغرور المعرفي. إنه يخاطبه، ويوقظه، ويقيم عليه الحجج، ويدعوّه إلى النظر، لكنه في الوقت نفسه يذكرّه بحدوده، وبأن الغيب لا يُحكم بمقاييس الحس، وبأن الإنسان لا يحيط بكل شيء علمًا.

والاستقامة القرآنية تظهر كذلك في الجمع بين الخوف والرجاء، وبين العدل والرحمة، وبين الغيب والشهادة، وبين العبادة والعمل، وبين الفرد والجماعة، وبين الدنيا والآخرة. فلا يميل القرآن بالإنسان إلى رهبانيةٍ تقطع علاقته بالحياة، ولا إلى دنيويةٍ تبتلع آخرته؛ لا يجعله غارقًا في الخوف حتى ييأس، ولا غارقًا في الرجاء حتى يأمن؛ لا يطلق القوة بلا خلق، ولا يجعل الرحمة ضعفًا عن الحق؛ لا يربي قلبًا رقيقًا بلا ميزان، ولا عقلاً صارمًا بلا خشية.

هذا هو معنى عدم العوج: توازنٌ إلهي لا يستطيع البشر أن يصنعوه كاملاً. فالبشر غالباً إذا شددوا في جهة مالوا عن جهة، وإذا أصلحوا باباً فتحوا خللاً في آخر، وإذا بالغوا في قيمة ظلموا قيمةً مقابلة. أما القرآن فيضع كل شيء في موضعه، لأن واضعه هو الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه.

ولذلك فإن من تدبر القرآن وجد فيه هندسةً عجيبةً للاستقامة: العقيدة تقيم الأصل، والعبادة تغذي الصلة، والأخلاق تزكي التعامل، والتشريع يحرس المجتمع، والقصاص يثبت القلب، والمواعظ توقظ الضمير، وأخبار الآخرة تردّ الدنيا إلى حجمها، والسنن تكشف حركة التاريخ، والأمثال تقرب الغيب إلى الفهم، والنداءات تجعل المؤمن حاضراً في مقام التكليف.

كل ذلك بلا عوج؛ لا فوضى، ولا تناقض، ولا افتعال، ولا انفصال بين المعنى والمقصد. وكأن القرآن مدينةٌ كاملةٌ من الهداية، كل طريقٍ فيها يؤدي إلى الله، وكل بابٍ فيها يفتح على معنى، وكل معنى فيها يطلب من الإنسان أن يستقيم.

وحين يقال عن القرآن: **(غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)**، فإن هذا يشمل كذلك طريقته في معالجة الإنسان. فهو لا يثقل عليه بما لا يطيق، ولا يتركه لما يشتهي؛ لا يكسر فطرته، ولا يطلقها بلا تهذيب؛ لا ينكر ضعفه، ولا يبرر له ضعفه؛ لا يبيئسه إذا أذنب، ولا يؤمّنه إذا تمادى. إنه يخاطب الإنسان كما هو: كائنًا مكرماً ضعيفاً، قابلاً للهداية والضلال، محتاجاً إلى ربه، مسؤولاً عن اختياره، محاطاً بالفتن، مفتوحاً له باب التوبة.

وهذه الاستقامة في النظر إلى الإنسان لا توجد في كثير من التصورات البشرية؛ فبعضها يرفعه حتى يؤلّفه، وبعضها يسحقه حتى يجعله مادةً أو

غريزة، وبعضها يحمله ما لا يحتمل، وبعضها يعفيه من المسؤولية حتى يفسده. أما القرآن فيضعه في موضعه الحق: عبدٌ مكرم، مستخلفٌ مبتلى، ضعيفٌ بغير الله، عزيزٌ بطاعته، محاسبٌ على عمله، راجعٌ إلى ربه.

ومن هنا تكون التقوى نتيجة طبيعية لاستقامة التصور. فإذا عرف الإنسان أنه عبدٌ لله، وأنه ملاقٍ ربه، وأن الكلمة محسوبة، والعمل محسوب، والنية معلومة، والظلم لا يضيع، والإحسان لا يُنسى، والغيب حق، والآخرة واقعٌ مؤجل، نشأت فيه تلك اليقظة التي تسمى التقوى.

وبهذا نرى أن غير ذي عوج ليست صفةً لغويةً محضة، بل صفةٌ تربويةٌ عميقة؛ لأن القرآن المستقيم ينشئ إنساناً مستقيماً، إذا صدق تلقيه. يقوم لسانه فيحذر الكذب والغيبة والزور، ويقوم قلبه فيحذر الرياء والحسد والكبر، ويقوم عقله فيحذر الشبهة والغرور، ويقوم عمله فيحذر الظلم والمعصية، ويقوم رجاءه فيحذر الأمن من مكر الله، ويقوم خوفه فيحذر اليأس من رحمة الله.

فهو كتابٌ يقيم الإنسان كله؛ لا يأخذ جزءاً ويترك جزءاً. لا يصنع عقلاً متديناً وقلباً قاسياً، ولا قلباً عاطفياً وعقلاً فوضوياً، ولا عبادةً بلا خلق، ولا خلقاً بلا توحيد، ولا حركةً بلا بصيرة، ولا بصيرةً بلا عمل. إنه كتاب الاستقامة الجامعة.

وهذا يفسر لماذا خُتِمت الآية بـ (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، لا بـ "لعلهم يعجبون" ولا "لعلهم يتذوقون" ولا "لعلهم يجادلون". فالقرآن العربي غير ذي العوج ليس غايته أن يخلق جمهوراً من المعجبين ببلاغته، بل أمةً من المتقين ببيانه.

وليس غايته أن يجعل الناس يتحدثون عن جماله فقط، بل أن يجعلهم يخافون الله بجماله، ويستقيمون به، ويردون عوج حياتهم إلى استقامته.

ومن هنا فإن كل قراءة للقرآن لا تنتهي إلى قدرٍ من التقوى فهي قراءة ناقصة الأثر، وإن أصابت شيئاً من العلم. وكل عناية بالعربية لا تقود إلى تعظيم الوحي فهي عناية مهددة بأن تتحول إلى مهارة باردة. وكل تدبر لا يزيد صاحبه خضوعاً لله فهو تدبرٌ يحتاج إلى مراجعة. لأن الآية جعلت الغاية واضحة: **(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**.

إن القرآن غير ذي عوج، لكن السؤال: هل نسمح له أن يقوم عوجنا؟ إنه مستقيم، لكن هل نقف نحن تحته أم نحاول أن ننشيه إلى رغباتنا؟ إنه عربي مبين، لكن هل نطلب بيانه لنتبع، أم لنؤول ونفرّ؟ إنه هدى، لكن هل ندخل عليه كطلاب هداية، أم كخصوم يريدون أن ينتصروا لأنفسهم؟

هذه الأسئلة هي الامتحان الحقيقي لتلقي القرآن. فالآية لا تخبرنا عن صفة القرآن فقط، بل تكشف موقفنا نحن من القرآن. إن كان غير ذي عوج، فكل عوج في علاقتنا به منّا لا منه؛ من أهوائنا، أو جهلنا، أو ضعف خشيتنا، أو استعجالنا، أو قسوة قلوبنا.

ولذلك ينبغي أن نخاف من أخطر عوج يقع حول القرآن: عوج التأويل الذي يبدأ صغيراً، ثم ينتهي إلى قلب المعنى. قد يبدأ صاحبه بزعم التجديد، أو مراعاة العصر، أو تحرير العقل، أو توسيع الدلالة، ثم لا يزال يزيح الكلمة عن موضعها، ويخفف حدّ التكليف، ويحوّل الغيب إلى رمز، والأمر إلى

اقتراح، والنهي إلى ذوق، والحق إلى احتمال، حتى لا يبقى من استقامة القرآن إلا ألفاظٌ تُتلى ومعانٍ أفرغت من سلطانها.

والقرآن غير ذي عوج يرفض هذا كله؛ لأنه لا يسمح أن يتحول البيان إلى عجينة في يد القارئ، ولا أن يصير الوحي تابعاً للزمن بعد أن كان حاكماً عليه. نعم، يتجدد فهم القرآن في تنزيله على الوقائع، وتتسع دلالاته لمن تدبره بعلمٍ وخشية، لكن التجدد شيء، ونقض الأصل شيء آخر؛ والفتح في المعنى شيء، وتحريف المعنى شيء آخر؛ والتدبر شيء، والتلاعب شيء آخر.

فالقرآن غير ذي عوج، ومن أراد أن يتدبره فليدخل إليه مستقيم النية، متواضع العقل، حاضر القلب، عالماً أن أول شروط الفهم ألا يفرض على النص عوجه الخاص، وأن أول أبواب الهداية أن يقبل أن يُصحح القرآن لا أن يصحح هو القرآن.

وهنا نصل إلى المعنى الأعمق: **غير ذي عوج** تعني أن القرآن ليس محتاجاً إلى تقويم من الإنسان، بل الإنسان هو المحتاج إلى التقويم بالقرآن. ليست الآية في حاجة إلى أن نجعلها معاصرةً بتغيير معناها، بل نحن في حاجة إلى أن نصير معاصرين للحق الخالد بفهمها وتنزيلها على حياتنا. وليس الوحي هو الذي يتأخر عن الزمن، بل الزمن هو الذي يضل كلما ابتعد عن الوحي.

إنّ وصف القرآن بأنه غير ذي عوج يعيد ترتيب العلاقة بين القارئ والمقروء: القارئ ليس سيد النص، بل عبد الله المتلقي لكلام الله؛ والعصر ليس حاكماً على الوحي، بل مجالٌ يُختبر فيه صدق اتباع الوحي؛ واللغة ليست

بابًا للعبث، بل أمانةً لحفظ الدلالة؛ والتأويل ليس حيلةً لتخفيف التكليف، بل جهدٌ لفهم المراد في ضوء البيان.

وهكذا تصبح هذه العبارة القصيرة: ﴿غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾ جدارًا عظيمًا يحمي القرآن من ثلاثة أخطار: خطر الاضطراب في الفهم، وخطر الهوى في التأويل، وخطر الفساد في العمل. فهي تقول للعقل: هذا الكتاب لا يتناقض. وتقول للقلب: لا تبحث فيه عن مسالك الهوى. وتقول للسلوك: استقم به. وتقول للغة: لا تخوني المعنى. وتقول للإنسان كله: الطريق أمامك واضح، فاختر مقامك.

وبذلك يتبين أن الاستقامة القرآنية ليست معنىً ساكنًا، بل قوةً فاعلة: تقيم الحجة، وتكشف العوج، وتصحح اللسان، وتردّ التصور، وتوقظ التقوى. فالقرآن غير ذي عوج في ذاته، وهو كذلك عدوٌ لكل عوجٍ في الإنسان والحياة.

ومن هنا يكون هذا الوصف حلقةً لا غنى عنها بين العريّة والتقوى. فلو كان القرآن عربيًّا فقط، لاحتمل أن يتعامل معه الناس بوصفه نصًّا بليغًا. ولو قيل غير ذي عوج فقط دون ذكر العريّة، لغاب وجه البيان اللساني في إقامة الحجة. ولو ذُكرت الصفتان دون الغاية، لظن الناس أن المقصود المعرفة أو الإعجاب. لكن الآية رتبت الأمر: قرآنٌ عربيٌّ، مستقيمٌ لا عوج فيه، لكي يتقي الناس.

وكأنها تقول: هذا البيان ليس للترف، وهذه الاستقامة ليست للنظر، وهذه العريّة ليست للمفاخرة، وهذا القرآن ليس للزينة؛ كل ذلك من أجل أن يستيقظ في الإنسان وازع التقوى، وأن يعرف أن الطريق إلى الله لا يحتاج إلى التواء،

وأن الحق حين ينزل من عند الله ينزل واضحًا مستقيمًا، وأن العوج الحقيقي ليس في الوحي، بل في القلب إذا رفض أن يستقيم.

وعند هذا الحدّ نكون قد بلغنا قلب الآية: القرآن عربي، لكن عربيته ليست وحدها السر؛ هو عربي غير ذي عوج. والاستقامة ليست وصفًا جانبيًا، بل هي التي تجعل العربية طريقًا مأمونًا إلى التقوى. ومن هنا ينبغي أن نقف في الفصل القادم عند سرّ اقتران الوصفين معًا: لماذا لم يقل فقط عربيًا؟ ولماذا لم يقل فقط مستقيمًا؟ وما الذي يكشفه الجمع بين بيان اللسان واستقامة الطريق من أسرار الهداية القرآنية؟

الفصل الخامس

لماذا جاء الوصفان معاً: عربياً وغير ذي عوج؟

ليست العظمة في قوله تعالى: (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) في اجتماع الكلمات فقط، بل في ترتيبها، وفي طريقة تعالقها، وفي هذا النسق المحكم الذي يجعل كل وصف يفتح باباً، ثم يأتي الوصف الذي بعده ليضبطه ويهديه إلى غايته. فالآية لا تقول: قرآنًا عربياً، ثم تسكت؛ ولا تقول: قرآنًا مستقيماً، ثم تكتفي؛ بل تجمع بين عربية البيان ونفي العوج، حتى لا تُفهم اللغة بمعزلٍ عن الاستقامة، ولا تُفهم الاستقامة بمعزلٍ عن البيان، ولا تُفهم الصفتان جميعاً بمعزلٍ عن الغاية الكبرى: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ).

وهذا الجمع ليس تكراراً في المعنى، بل بناءً دقيق. فالعربية تدل على اللسان الذي به نزل القرآن، وعلى البيان الذي به قامت الحجة، وعلى الوضوح الذي به خوطب أول المخاطبين، ثم من بعدهم كل من أراد أن يدخل إلى أصل الوحي من بابهِ. أما قوله: (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) فيدل على سلامة هذا البيان من الميل، وبراءة هذا الطريق من الالتواء، واستقامة المعنى والمقصد والحجة والأثر.

فالعربية تمنح الخطاب جهة الفهم، وغير ذي عوج يمنحه جهة الثقة. العربية تقول للإنسان: هذا خطابٌ مبينٌ يمكن أن يُفهم. وغير ذي عوج تقول له: وهذا الخطاب الذي تفهمه لا يخدعك، ولا يضللك، ولا يلتوي بك، ولا يقودك إلى اضطراب، بل يأخذك إلى الحق في صراطٍ مستقيم.

ولو قيل: قرآنًا عربيًّا فقط، لكان في ذلك إثباتٌ للسان التنزيل، لكنه لا يكشف وحده عن كمال الاستقامة في كل جهات الخطاب. ولو قيل: غير ذي عوج فقط، لكان فيه إثباتٌ للاستقامة، لكنه لا يبيّن اللسان الذي به تجلت هذه الاستقامة وقامت به الحجة على المخاطبين. فجاء الوصفان معًا لأن الهداية القرآنية لا تقوم على معنى غائم، ولا على استقامة مجهولة الطريق، بل على بيانٍ مبينٍ مستقيم.

إن الإنسان لا يهتدي بمجرد أن يُقال له الحق إذا كان الحق مغلفًا بغموضٍ لا يطيقه، ولا بمجرد أن يسمع كلامًا واضحًا إذا كان هذا الكلام معوجّ المقصد أو مضطرب المعنى. يحتاج الإنسان إلى أمرين: وضوح يهديه إلى الفهم، واستقامة تمنحه الأمان في الاتباع. وهذا ما جمعته الآية: عربيًّا من جهة البيان، غير ذي عوج من جهة الاستقامة.

وهنا نرى أن القرآن لا يفصل بين جمال العبارة وصدق الطريق. فكم من كلام جميل يأخذ السامع بعيدًا عن الحق، وكم من عبارة فصيحة تصنع حجابًا على الباطل، وكم من خطاب واضح في ظاهره لكنه معوجّ في مقصده؛ يفتح للإنسان أبواب اللذة ويغلق عنه أبواب العقوبة، يزيّن له الشهوة باسم الحرية، والظلم باسم القوة، والكبر باسم الاعتزاز، والتقلت باسم التحرر. أما القرآن فبيانه ليس مكشوفًا فحسب، بل مستقيم؛ وجماله ليس مؤثرًا فحسب، بل هادٍ؛ وعربيته ليست فصيحةً فحسب، بل مبرأةً من العوج.

ومن هنا يكون الجمع بين الوصفين ردًّا على تصورين ناقصين: تصور يرى العربية قيمةً لغويةً مجردة، فيقف عند فصاحة الحرف ونظام الجملة، وينسى

أن القرآن لم ينزل ليصنع إعجاباً لغوياً فقط؛ وتصور يرى الاستقامة معنًى مجرداً يمكن أن يُدرك بلا لسانٍ مضبوط، فيفتح الباب لتفكيك النص عن عربيته، ثم يدّعي الوصول إلى مقاصده من غير احترامٍ لطريقه.

فالآية تردّ الأول بقولها: **(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**؛ أي ليست العربية هنا للترف البياني، بل للتقوى. وتردّ الثاني بقولها: **(عَرَبِيًّا)**؛ أي لا تدخل إلى هذا البيان من بابٍ اخترعته لنفسك، بل من اللسان الذي نزل به.

وهذا من أعمق ما ينبغي تقريره: لا تقوى بلا فهم، ولا فهم قرآنيّاً عميقاً بلا احترامٍ للعربية، ولا احترام للعربية القرآنية بلا إدراك أنها عربيةٌ غير ذي عوج. فهذه الثلاثية هي قلب الآية: اللسان، والاستقامة، والتقوى.

إنّ العربية وحدها، إذا عُزلت عن الوحي، قد تتحول إلى براعةٍ باردة، أو زخرفٍ لفظي، أو معركةٍ نحويةٍ لا تغير قلباً ولا تقيم حياة. والاستقامة إذا عُزلت عن العربية، قد تتحول إلى دعوى عامة يملؤها كل أحدٍ بما يشتهي. والتقوى إذا عُزلت عن البيان المستقيم، قد تتحول إلى عاطفةٍ مبهمّة لا تعرف ما تمتثل ولا ما تجتنب. فجاء القرآن جامعاً: يبيّن لفهم، ويستقيم لتأمن، ويهدي لتتقي.

وليس من المصادفة أن يأتي وصف **(غَيْرِ ذِي عِوَجٍ)** بعد **(عَرَبِيًّا)** مباشرة؛ لأنّ الخطر الأكبر في اللغة ليس الجهل بها فقط، بل سوء استعمالها. فاللغة قد تكون أداة كشف، وقد تكون أداة ستر؛ قد تكون مصباحاً، وقد تكون دخاناً؛ قد تكون طريقاً إلى الحق، وقد تكون ممراً إلى الحيلة. ومن ثمّ جاء الوصف

القرآني ليقول: هذه العربية ليست كسائر ما يمكن أن تفعله الألسنة حين تنحرف، بل هي عربية الوحي، لا عوج فيها.

وقد كان العرب يعرفون أن اللسان قوة؛ به تُقام الأحلاف، وتُشعل الحروب، وتُرفع القبائل، وتُهدم السمعة، وتُصنع الأمجاد، وتُحفظ المآثر. وكانوا يعرفون أن البيان قد يملك النفوس كما تملكها السيوف. فجاء القرآن في هذا اللسان القوي، لكنه لم يستعمل قوته في التحريض الباطل، ولا في المباهاة، ولا في صناعة العصبية، ولا في زخرفة الفراغ، بل استعملها في التوحيد، والإنذار، والتزكية، والعدل، وتحرير الإنسان من عبودية غير الله.

وهنا يظهر معنى عظيم: القرآن لم يلغ قوة العربية، بل غير وجهتها. أخذ من العربية قدرتها على النفاذ، ولكنه جعل نفاذها إلى القلب لا إلى العصبية؛ أخذ قدرتها على التصوير، ولكنه جعل تصويرها للأخرة والسنن والمصير لا للأهواء الرخيصة؛ أخذ قدرتها على الإيجاز، ولكنه جعل إيجازها كثافة هداية لا ألغازاً للنخبة؛ أخذ قدرتها على الإيقاع، ولكنه جعل إيقاعها يوقظ الخشية لا يطرب الحس وحده.

وهذا هو الفرق بين لغة قوية ولغة مستقيمة. قد تكون اللغة قوية في التأثير، لكنها معوجة في المقصد؛ وقد تكون مؤثرة في العاطفة، لكنها تفسد الميزان؛ وقد تكون قادرة على تحريك الجماهير، لكنها تقودهم إلى باطل. أما القرآن فجمع القوة والاستقامة: قوة البيان، واستقامة الهداية؛ نفاذ الكلمة، وطهارة المقصد؛ جمال اللسان، وصدق الطريق.

ولذلك فإن قوله تعالى: **(عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ)** يعلمنا أن الخطاب الحق لا يكفي أن يكون مفهوماً، بل يجب أن يكون أميئاً. والكلمة الصالحة لا يكفي أن تكون فصيحة، بل يجب أن تكون مستقيمة. والبيان الرفيع لا يكفي أن يدهش، بل يجب أن يهدي. وهذه قاعدة قرآنية في كل خطاب يريد أن ينتسب إلى الحق: أن يجمع بين وضوح العبارة ونزاهة المقصد.

إن من أخطر ما يبتلى به الإنسان أن يُفتن ببيانٍ معوج؛ لأن العوج إذا جاء في صورة ركيكة تنبّه له الناس، أما إذا جاء في ثوبٍ بليغٍ ساحرٍ دخل إلى النفوس من باب الإعجاب. ولذلك كان البيان الذي لا يخضع للتقوى أشدّ خطراً من الجهل أحياناً؛ فالجاهل قد ينكشف ضعفه سريعاً، أما البليغ الملتوي فيصنع للباطل هيئة الحق، ويمنح الهوى لغةً محترمة، ويجعل الانحراف يبدو كأنه عمقٌ أو شجاعةٌ أو تحرير.

ومن هنا نفهم لماذا كان القرآن لا يكتفي بأن يكون بليغاً، بل يكون بليغاً غير ذي عوج. فالبلاغة فيه ليست حيلة إقناع، بل نور بيان. ليست سطوة على السامع، بل رحمة به. ليست استدراجاً نفسياً، بل كشفٌ للحق. ولا يمكن في القرآن أن ينفصل جمال العبارة عن عدل المعنى، ولا قوة التأثير عن صدق الهداية.

والآية بهذا المعنى تؤسس لميزانٍ في النظر إلى كل خطابٍ بشري: لا تسأل فقط هل هو جميل؟ بل اسأل: هل هو مستقيم؟ لا تسأل فقط هل هو مؤثر؟ بل اسأل: إلى أين يقود؟ لا تسأل فقط هل هو فصيح؟ بل اسأل: ما الذي يخدمه؟ لا تسأل فقط هل هو عربيٌّ مبين؟ بل اسأل: هل هو خالٍ من العوج؟

فقد تكون الكلمة الجميلة باباً إلى فتنة، وقد يكون الأسلوب الرفيع غطاءً للانحراف، وقد يكون المصطلح البراق طريقةً لتهريب معنى فاسد. والقرآن يعلمنا أن صفاء اللفظ لا يكفي إذا لم يصحبه صفاء الطريق. ولذلك جاء: (عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)، لا عربياً فقط.

وهنا نبلغ معنى أدق: غير ذي عوج ليست صفةً مضافةً إلى القرآن بعد تمام وصفه بالعربية، بل هي تهيئةٌ للعربية القرآنية من كل ما يمكن أن يلحق باللغة البشرية من انحراف. كأن الآية تقول: نعم، هو عربي، ولكنه ليس عربياً من جنس الكلام الذي يعتريه الهوى، أو يلبسه النقص، أو يحكمه الجهل، أو يختلط فيه الحق بالباطل؛ هو عربيٌّ في لسانه، ربانيٌّ في مصدره، مستقيمٌ في طريقه.

فالعربية هنا واقعةٌ تحت سلطان الوحي، وليست الوحي واقعاً تحت سلطان العربية البشرية بما فيها من احتمالاتٍ سائبة. القرآن يستعمل العربية، لكنه يستعملها استعمال من يعلم كل شيء، لا استعمال من يبحث عن العبارة المناسبة بجهدٍ بشري. ومن ثم فإن كل لفظٍ فيه موضعه مراد، وكل تركيبٍ فيه مقدّر، وكل انتقالٍ فيه حكمة، وكل تكرارٍ فيه وظيفة، وكل حذفٍ فيه دلالة، وكل تقديمٍ وتأخيرٍ فيه ميزان.

وهذا هو السر في أن القرآن لا يُقرأ ككلام العرب وإن كان عربياً؛ لأن كلام العرب محكومٌ بتجاربهم وأغراضهم ومقاماتهم المحدودة، أما القرآن فمحكومٌ بعلم الله وحكمته وهدايته. ولهذا قد تجد في كلام العرب فصاحةً، لكنك لا تجد ذلك الاجتماع القرآني العجيب بين صدق الغيب، وعدل الحكم، وجلال

التوحيد، ورقة الموعظة، وقوة الحجة، وإيقاظ القلب، وإقامة المجتمع، وكشف السنن، وربط الدنيا بالآخرة، في نسقٍ واحدٍ لا يتصدع.

ومن هنا كان الجمع بين الوصفين إعلاناً عن وحدةٍ لا تنفصل: **البيان والاستقامة**. فالقرآن لا يعطيك معنىً مستقيماً بلغةٍ غامضة، ولا يعطيك لغةً واضحةً بمعنىً مضطرب؛ بل يعطيك بياناً يضيء واستقامةً تقود. يضع النور في المصباح، ويجعل المصباح في الطريق، ويجعل الطريق إلى الله.

وهذا الفرق بين البيان القرآني وكثيرٍ من خطابات البشر؛ فكثيرٌ من الخطابات إما أن تكون واضحةً لكنها فقيرة العمق، أو عميقةً لكنها ملتبسة، أو جميلةً لكنها غير ملتزمة، أو ملتزمةً لكنها جامدة، أو مؤثرةً لكنها غير منضبطة. أما القرآن فهو واضحٌ عميق، جميلٌ هادٍ، مؤثرٌ مستقيم، قريبٌ عالٍ، ميسرٌ غير مبتذل، معجزٌ غير مغلق، يملك أن يخاطب البسيط والعالم، والطفل والشيخ، والقلب والعقل، والفرد والأمة.

وهذا من آثار كونه عربياً غير ذي عوج. فالعربية تمنحه طاقة البيان، ونفي العوج يمنح هذه الطاقة وجهتها الصحيحة. ولولا الاستقامة، لأمكن للبيان أن يصير فتنة. ولولا البيان، لبقيت الاستقامة معنىً لا يبلغ المخاطب على وجه إقامة الحجة. فلا بد من الاثنين معاً: بيانٌ يبلغ، واستقامةٌ تهدي.

ولعل من أسرار الآية أن العربية تشير إلى قابلية الفهم، وغير ذي عوج تشير إلى مأمونية الاتباع. فأنت لا تستطيع أن تتبع كلاماً لا تفهمه، ولا ينبغي أن تتبع كلاماً لا تأمن استقامته. أما القرآن فجمع الأمرين: يُفهم من جهة لسانه،

ويُتبع من جهة استقامته. ولذلك كان مؤهلاً لأن ينشئ التقوى؛ لأن التقوى تحتاج إلى بيان يكشف، وثقة تُسلم، ويقين يجعل القلب يقول: هذا هو الطريق.

وفي حياة الإنسان لا ينشأ الانحراف غالباً من الجهل الصريح وحده، بل من مزيج بين معرفة ناقصة وتأويل معوج. قد يعرف الإنسان بعض الحق، لكنه يلويه ليوافق مصلحته. وقد يسمع البيان، لكنه يبحث عن ثغرة. وقد يدرك الحكم، لكنه يسأل لا ليفهم، بل ليجد مخرجاً. ولذلك كان القرآن غير ذي عوج؛ لأنه يغلق على النفس منافذ التلاعب، ويجعل الإنسان يرى أن المشكلة ليست في الطريق، بل في إرادته هو.

والقرآن في هذا يشبه مرآة مستقيمة لا تجامل الوجه. إذا وقف أمامها الإنسان رأى ما فيه، لا ما يريد أن يتخيله. والناس لا يكرهون المرآة لأنها كاذبة، بل أحياناً لأنها صادقة. كذلك القرآن؛ من دخل عليه يريد التزكية أحبه لأنه يكشفه لينقذه، ومن دخل عليه يريد تبرير هواه ضاق به لأنه لا يشاركه المكر على النفس.

ومن هنا كان الجمع بين العريّة ونفي العوج من أعظم وجوه الرحمة والشفقة معاً. هو رحمة؛ لأن الله لم يترك الإنسان في غموض. وهو شدة؛ لأن الله لم يترك له عذر الالتباس. هو رحمة؛ لأن الطريق بَيّن. وهو شدة؛ لأن البيان إذا قام، قامت المسؤولية. ولهذا جاءت الغاية: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، لا لأن التقوى تُفرض قسراً، بل لأن شروطها البيانية قد اكتملت: وحيّ متلو، لسان مبين، طريق بلا عوج.

وليس معنى (لَعَلَّهُمْ) هنا أن الأمر مترددٌ من جهة علم الله، حاشاه، وإنما هي في خطاب الناس تفتح لهم باب الرجاء والمسؤولية؛ كأن البيان أُقيم لهم ليكونوا في موضع من يُرجى منه أن يتقي إذا أنصف نفسه، وصدق في تلقيه، وترك عوجه الداخلي. فالقرآن من جهته كامل البيان والاستقامة، ويبقى الإنسان من جهته: هل يتلقى أم يعرض؟ هل يتقي أم يكابر؟

ومن هنا نفهم أن الآية ليست في وصف القرآن وحده، بل في بناء علاقة الإنسان بالقرآن. فهي تقول له: هذا الذي بين يديك ليس كلامًا غامضًا، ولا لسانًا أعجميًا عن مخاطبيه الأولين، ولا طريقًا متعرجًا، ولا خطابًا يحتمل العبث بلا حد؛ إنه قرآن عربي غير ذي عوج. فماذا ستصنع أنت بهذا البيان؟ هل ستجعله زينة تلاوة فقط؟ هل ستجعله مجالًا للجدل فقط؟ هل ستتذوقه دون أن تتقي؟ أم ستترك استقامته تعالج اعوجاجك؟

إن الجمع بين الوصفين يجعل من القرآن معيارًا مزدوجًا: معيارًا للغة، ومعيارًا للحق. فهو يعلم اللغة أن تبلغ أعلى مراتب البيان حين تخدم الهداية، ويعلم الحق أن يُعرض للناس بوضوح يقطع المعاذير. ومن هنا فلا يجوز للخطاب الديني نفسه أن يكون ملتبسًا حيث ينبغي البيان، ولا متكلفًا حيث يكفي الوضوح، ولا متعرجًا في مقاصده، ولا مزخرفًا على حساب الصدق.

من يتعلم من القرآن ينبغي أن يتعلم أن الكلمة أمانة، وأن البيان عبودية، وأن جمال العبارة إذا لم يكن في خدمة الحق فقد يكون فتنةً لصاحبه ولمن يسمعه. وهذا بابٌ يحتاجه الكاتب، والخطيب، والمعلم، والمفكر، والداعية، وكل من

يتعامل مع اللغة؛ لأن اللسان قد يكون باب هداية، وقد يكون باب عوج. والقرآن هو النموذج الأعلى للسان صار كله هداية.

وهنا تتضح لنا علاقة هذا الفصل بالفصل السابق؛ فقد قلنا إن القرآن غير ذي عوج في ذاته وفي طريقه، وها نحن نقول إن هذا الوصف لم يأت منفصلاً عن عربيته، بل جاء ليكشف أن العربية القرآنية ليست فصاحةً مطلقة، بل فصاحةً مستقيمة. وليس البيان القرآني مجرد طاقة لغوية، بل طاقة محروسة بالحق. وليس الإعجاز مجرد علو في النظم، بل علو في النظم من جهة، واستقامة في الهداية من جهة أخرى.

ولذلك فإن من أراد أن يكتب عن القرآن، أو يتكلم باسم القرآن، أو يستلهم بيانه، فعليه أن يفهم هذا السر: لا يكفي أن ترتفع العبارة، بل يجب أن تستقيم. لا يكفي أن يكون الكلام جميلاً، بل يجب أن يكون أميناً. لا يكفي أن يُدهش السامع، بل يجب أن يقربه من الله. فالقرآن ليس مدرسة بلاغة فحسب، بل مدرسة صدق.

وهذه الحقيقة تضبط حتى علاقتنا بالتدبر. فالتدبر ليس استخراج غرائب بأي ثمن، ولا صناعة دهشة على حساب المعنى، ولا تحميل الآية ما لا تحتمل باسم العمق؛ لأن القرآن غير ذي عوج، ومن تعامله معه يجب أن يكون غير ذي عوج أيضاً. إن أجمل التدبر ما زاد المعنى وضوحاً وجلالاً، لا ما جعل النص غريباً عن نفسه؛ وما قرب القلب من التقوى، لا ما أشبعه بإعجاب ذهني لا ثمرة له.

ومن هنا يكون الجمع بين عربيًّا وغير ذي عوج ضابطاً لكل قراءة: عربية النص تمنعك من فوضى التأويل، ونفي العوج يمنعك من توظيف العربية نفسها للالتفاف على النص. فقد يأتي من يعرف العربية فيستخدم احتمالاتها ليهرب من مرادها، فيأخذ من اللسان ما يخدم هواه، ويترك من السياق ما يفصح تأويله. فجاء وصف القرآن بأنه غير ذي عوج ليذكر أن اللسان هنا ليس ملعباً للبراعة، بل صراطاً للحقيقة.

ولعل هذا من أخطر الفروق بين العالم المتقي والعالم المتلاعب: كلاهما قد يعرف العربية، لكن الأول يدخل بها إلى مراد الله، والثاني يدخل بها إلى مراد نفسه. الأول يجعل اللغة خادمة للبيان، والثاني يجعلها خادمة للعوج. الأول إذا رأى ظاهر النص قوياً سلّم له، والثاني بحث عن احتمالٍ بعيدٍ يخفف سلطانه. الأول يخاف أن يقول على الله ما لا يعلم، والثاني يفرح بأن يجد في اللغة ما يزيّن له قوله.

ولذلك لا تنشأ التقوى من العلم وحده، بل من العلم حين يستقيم. كما لا تنشأ من اللغة وحدها، بل من اللغة حين تُسلّم للوحي. فالآية تقول بطريقة خفية: ليس كل فهم يقود إلى التقوى، بل الفهم الذي يتلقى القرآن عربيًّا غير ذي عوج، أي يتلقى اللسان في ضوء الاستقامة، والاستقامة في ضوء المقصد.

وحين ننظر إلى واقع المسلمين اليوم، نجد أن كثيراً من الخلل جاء من انفصال هذه العناصر الثلاثة: من يتكلم عن القرآن بلا عربية كافية فيقع في التعميم والاضطراب، ومن يتقن العربية لكنه لا يخضع للوحي فيقع في العوج، ومن

يطلب التقوى بعاطفةٍ لا تضبطها معرفة في الغلو أو الضعف أو الفهم الجزئي. والآية تجمع ما تفرق فينا: قرآن، وعربية، واستقامة، وتقوى.

إنها تعلمنا أن الطريق إلى الله ليس فوضى روحية، ولا مهارة لغوية مجردة، ولا تنظيرًا عقليًا منفصلاً، بل هو تلقي كلام الله كما أنزله الله، بلسانه، وباستقامته، وبغايته. ومن هنا يصبح تعلّم العربية عبادةً إذا قصد به فهم الوحي، ويصبح ضبط المعنى تقوى إذا قصد به صيانة النص من العوج، ويصبح البيان عملاً صالحاً إذا صار جسراً إلى الله.

وقد يتساءل المرء: لماذا لم ينزل القرآن بكل اللغات دفعةً واحدة؟ والجواب أن حكمة الله اقتضت أن يكون للوحي الخاتم أصلٌ محفوظٌ محددٌ اللسان، لا يتعدد بتعدد الألسنة فيضيع معيار الاحتكام. فالترجمات تتعدد وتختلف وتتأثر بالمترجمين، أما النص المنزل فواحد. ولو صار كل لسانٍ أصلاً مستقلاً، لضاع الميزان. فجعل الله للقرآن لساناً واحداً محفوظاً، ثم امتدت هدايته إلى الناس بالبيان، والتعليم، والترجمة، والدعوة، وبقي الأصل العربي هو المعيار.

وهذا من تمام معنى غير ذي عوج أيضاً؛ لأن تعدد الأصول مظنة اضطراب، أما وحدة النص المنزل فتحفظ للأمة مرجعيتها. فالقرآن لا يفقد عالميته لأنه عربي، بل يحفظ عالميته بذلك؛ لأن العالم كله يستطيع أن يرجع إلى أصل واحد، لا إلى نسخ متفرقة تتنازعها اللغات. فالعربية هنا ليست حاجزاً، بل ضماناً؛ ليست تضيقاً، بل حفظاً؛ ليست عرقاً، بل معياراً.

ومع ذلك، فإن هذه الضمانة لا تؤتي ثمرتها إلا إذا حملتها الأمة بأمانة. فإذا ضعف أهل العربية في فهم لسانهم، أو تعاملوا مع القرآن بسطحية، أو تركوا العربية القرآنية تغيب عن التعليم والذوق والتفكير، صاروا كمن يملك مفتاحًا ثم لا يحسن فتح الباب. وشرف العربية لا ينفع صاحبه إن لم يتحول إلى خدمة للوحي وتقوى لله. فما قيمة أن يكون اللسان عربيًا إذا كان القلب معوجًا؟ وما قيمة أن تعرف الإعراب إذا لم تُعرب النفس عن خضوعها لله؟

فالآية لا تمنح أهل العربية امتيازًا يفاخرون به، بل تكليفًا يقومون به. إن كانوا أقرب إلى لسان القرآن، فهم أشد مسؤولية في فهمه والعمل به وتبليغه. والعربية التي لا تقود صاحبها إلى التقوى قد تتحول يوم القيامة إلى حجة عليه؛ لأنه كان أقرب إلى البيان، فلم ينتفع بالبيان.

وهكذا يتضح أن الجمع بين الوصفين يحمل مسؤوليتين: مسؤولية الفهم من جهة عربيًا، ومسؤولية الاستقامة من جهة غير ذي عوج. فمن أخذ الأولى وترك الثانية صار صاحب أداة بلا ورع، ومن ادعى الثانية وترك الأولى صار صاحب دعوى بلا ضبط. والقرآن يريد الجمع: أن نفهم بلسانه، وأن نستقيم بهداه.

ومن هنا يمكن أن نختصر سرّ الفصل في عبارة واحدة: العربية في القرآن هي وضوح الطريق، ونفي العوج هو أمان الطريق، والتقوى هي سلوك الطريق.

فالطريق إن لم يكن واضحًا تاه السائر، وإن لم يكن مستقيمًا ضلّ وإن سار، وإن لم يمش فيه الإنسان بقي العلم عليه لا له. ولهذا لم يقل الله: قرآنًا عربيًا

غير ذي عوج لعلمهم يعلمون فقط، بل قال: **(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**؛ لأن العلم الذي لا يتحول إلى تقوى لا يبلغ غاية القرآن، ولأن البيان الذي لا ينشئ مسؤولية لا يكون قد فهم في أفقه الأعلى.

إنّ الآية تجعلنا نرى القرآن كصراطٍ بياني: **العربية** هي انكشاف معالمة، و**عدم العوج** هو استقامة امتداده، و**التقوى** هي مشي القلب عليه. ومن وقف يتأمل جمال الطريق ولم يمش، لم يبلغ مقصده. ومن مشى بغير نظرٍ في معالم الطريق تعثر. ومن زعم أن الطريق يستقيم له وهو يترك صراطه فقد خدع نفسه.

ولذلك فإن أعظم الوفاء لهذه الآية أن نعيد علاقتنا بالقرآن من مجرد التلاوة إلى التلقي، ومن مجرد الإعجاب إلى الاتباع، ومن مجرد الدرس اللغوي إلى بناء التقوى، ومن مجرد الدفاع عن العربية إلى إحياء وظيفتها القرآنية. فالعربية لم تُشرّف بالقرآن لتصير شعارًا ثقافيًا، بل لتظل بابًا للبيان الذي يقود الإنسان إلى الله.

وإذا كان القرآن عربيًا غير ذي عوج، فالواجب أن نحذر من عوجين: عوجٍ يقطع القرآن عن عربيته، وعوجٍ يجعل العربية منفصلةً عن تقواه. الأول يفتح باب التأويل الفوضوي، والثاني يحوّل اللسان إلى مهارةٍ لا روح فيها. والاستقامة أن نبقي ما جمعه الله مجموعًا: قرآنًا، عربيًا، غير ذي عوج، لغاية التقوى.

وهذه الوحدة هي التي صنعت أجيال المؤمنين الأولى: كانوا يسمعون القرآن بلسانهم، لكنهم لم يقفوا عند اللسان؛ كانوا يدركون فصاحته، لكنهم لم يجعلوها

متعة لغوية محضة؛ كانوا يتلقون الآية كخطابٍ مباشرٍ من الله، فينتقلون من السمع إلى العمل، ومن الفهم إلى الخشية، ومن البيان إلى التقوى. ولذلك غيرهم القرآن؛ لأنهم لم يتعاملوا معه كموضوعٍ للدراسة فقط، بل كمصدرٍ للتكوين.

وما أحوجنا أن نرجع إلى هذا المقام. أن نقرأ القرآن لا لنتنصر به في المجادلات فقط، ولا لنستخرج منه ما يوافق أذواقنا فقط، ولا لنعلق به على العالم من الخارج، بل لنسمح له أن يعيد بناء الداخل، وأن يقوم عوج النظر، وعوج اللسان، وعوج الإرادة، وعوج السلوك. فالقرآن لم ينزل ليكون شاهداً على فصاحة العربية وحدها، بل ليكون شاهداً على إمكانية أن يستقيم الإنسان إذا تلقى كلام الله كما ينبغي.

إنّ الوصفين معاً يكشفان عن رحمة الله في التنزيل: لم يترك الحق مجرداً عن البيان، ولم يترك البيان معرضاً للعوج، ولم يجعل الغاية معرفةً باردة، بل تقوى حية. وهذا هو تمام النعمة: أن يأتيك الحق واضحاً، مستقيماً، هادياً، ثم يدعوك أن تجعل من وضوحه يقظة، ومن استقامته صراطاً، ومن عربيته باباً إلى قلبك.

وبهذا نصل إلى أن قوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾ ليس وصفين متجاوزين، بل جناحان لمعنى واحد: **البيان الهادي**. البيان من جهة أنه عربي مبين، والهدى من جهة أنه غير ذي عوج. فإذا اجتمعا، صار الخطاب مؤهلاً لأن ينشئ التقوى؛ لأن القلب لا يتقي حتى يفهم، ولا يثبت حتى يثق، ولا يسير حتى يرى الطريق.

ومن هنا يكون الفصل القادم انتقالًا طبيعيًا إلى الغاية: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ). فقد عرفنا أن القرآن قرآن، وأنه عربي، وأن عريبته ليست ككل عربية، وأنه غير ذي عوج، وأن الجمع بين اللسان والاستقامة مقصود. ويبقى السؤال الأعظم: كيف تتحول اللغة إلى تقوى؟ كيف يصير البيان عملاً في القلب؟ كيف تنتقل الكلمة من السمع إلى الضمير، ومن الضمير إلى السلوك، حتى يصبح الإنسان أتقى لأنه فهم كلام الله؟

الفصل السادس

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ؛ الغاية الأخلاقية للبيان

حين تنتهي الآية إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فإنها تكشف الغاية التي من أجلها جاء هذا النسق كلّ: قرآنًا، عربيًّا، غير ذي عوج. فالآية لا تقف عند وصف القرآن، ولا تكتفي ببيان لغته، ولا تجعل استقامته صفةً نظريةً يُتأمل جمالها من بعيد، بل تجعل كل ذلك في خدمة مقصدٍ واحدٍ عظيم: أن تنشأ في الإنسان التقوى.

وهذا من أعظم ما يميز القرآن عن كل كلامٍ بشريٍّ رفيع؛ فالكلام البشري قد يبلغ الغاية في البلاغة، وقد يدهش الذوق، وقد يحرك العاطفة، وقد يفتح للعقل مجالًا من النظر، ولكنه لا يملك بذاته أن يجعل غاية البيان تقوى الله، ولا أن يجعل اللغة طريقًا إلى مراقبة الله، ولا أن يربط الكلمة بالمصير، والوضوح بالمسؤولية، والفهم بالمحاسبة، والبلاغة بالنجاة.

أما القرآن، فإنه لا يرضى للبيان أن يكون ترفًا، ولا للغة أن تكون زينةً، ولا للفصاحة أن تكون مجالًا للإعجاب المنفصل عن العمل؛ إنما يجعل البيان طريقًا إلى تكوين الضمير المتقي، ويجعل اللسان العربي المبين وسيلةً لإزالة العذر، ويجعل نفي العوج ضمانًا لأن يكون الطريق إلى الله واضحًا مستقيمًا، ثم يقول للإنسان: لقد بُيِّن لك، فماذا أنت صانع؟

وهنا نصل إلى سرّ بالغ الدقة: **التقوى لا تنشأ من الغموض، بل من البيان.** قد يخاف الإنسان مما يجهل خوفاً مضطرباً، وقد ينكمش أمام المجهول، وقد يرتبك في الضباب، لكن التقوى القرآنية ليست خوفاً أعمى، ولا قلقاً غامضاً، ولا رهبةً عشوائية؛ إنها وعيٌ بالله، وخشية قائمة على معرفة، وحذرٌ من المعصية بعد قيام الحجة، واستقامة في السلوك بعد وضوح الطريق.

ولهذا جاء القرآن عربياً غير ذي عوج؛ لأن التقوى تحتاج إلى خطابٍ يبلغ الإنسان، لا إلى كلامٍ يتعذر فهمه؛ وتحتاج إلى طريقٍ مستقيم، لا إلى مسالكٍ متداخلةٍ تترك النفس في حيرة؛ وتحتاج إلى حقٍّ واضح، لا إلى عبارةٍ يستطيع الهوى أن يلويها كما يشاء. فكلما صفا البيان، وظهر المعنى، واستقام الطريق، ضاقت على النفس مساحات التهرب، وبدأت مسؤوليتها الحقيقية.

إن الإنسان قد يفرّ من الحق حين يكون الحق غامضاً، أو يدّعي أنه لم يفهم حين تكون العبارة ملتبسة، أو يعتذر بأن الطريق لم يتضح له حين تكون الدلالة مضطربة. أما القرآن، بوصفه عربياً غير ذي عوج، فإنه يقطع هذه المسالك؛ لا ليقسو على الإنسان، بل ليرحمه من التيه، ولا ليضيّق عليه، بل ليهديه إلى الطريق، ولا ليوقعه في الحرج، بل ليقيمه على بينةٍ من ربه.

ومن هنا فإن **(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)** لا تأتي كخاتمةٍ خارجيةٍ للآية، بل كثمرةٍ طبيعيةٍ لما قبلها. فالقرآن إذا كان متلوّاً حاضراً، وإذا كان عربياً مبيناً، وإذا كان غير ذي عوج، فقد تهيأت شروط التلقي، وبقي على الإنسان أن ينتقل من البيان إلى الاستجابة، ومن الفهم إلى الخضوع، ومن وضوح المعنى إلى مراقبة الله.

والتقوى في هذا المقام ليست معنىً جزئياً محدوداً، بل هي الاسم الجامع لاستقامة الإنسان أمام الله. إنها أن يشعر القلب أن الله مطلعٌ عليه، وأن الكلمة محسوبة، والخطوة مرصودة، والنية معلومة، والسرّ غير غائب، والظاهر لا يغني عن الباطن، وأن الإنسان لا يستطيع أن ينجو بمجرد حسن العبارة أو حذق الجدل أو جمال المظهر، وإنما ينجو بقلبٍ يتقي، وعملٍ يستقيم، ولسانٍ يصدق، وسريرةٍ تُصلح.

فالقُرآن لا يصنع التقوى بأن يخيف الإنسان فقط، بل يصنعها بأن يعيد بناء وعيه كله. يعرفه بالله، وبأسمائه وصفاته على الوجه اللائق بجلاله وتنزيهه، ويعرفه بنفسه وضعفه وفقره، ويعرفه بالدنيا وفتنتها وزوالها، ويعرفه بالآخرة وحقائقها، ويعرفه بالشیطان وعداوته، ويعرفه بالسنن التي تجري على الأمم، ويعرفه بالمآلات التي تنتهي إليها الاختيارات. فإذا اكتمل هذا الوعي، لم تعد التقوى مجرد وصية أخلاقية، بل صارت ضرورةً وجودية؛ لأن الإنسان يرى أنه لا يستطيع أن يعيش بلا وقاية من غضب الله، ولا بلا نورٍ يهديه في ظلمات الطريق.

وهذا هو الفرق بين أخلاقٍ تنشأ من الذوق الاجتماعي، وتقوى تنشأ من الوحي. الأخلاق الاجتماعية قد تتبدل بتبدل الأعراف، وقد تُحترم في العلن وتُخون في الخفاء، وقد ترتبط بصورة الإنسان أمام الناس أكثر من ارتباطها بحقيقته أمام الله. أما التقوى فهي أخلاق السر والعلن معاً؛ لأن صاحبها لا يراقب عيون الناس فقط، بل يعلم أن الله يراه، ولا يطلب مجرد السمعة الطيبة، بل النجاة عند الله.

ومن هنا نفهم لماذا كانت التقوى هي الغاية الأنسب للبيان القرآني. فالقرآن لا يريد أن ينشئ إنساناً مثقفاً فقط، ولا إنساناً متذوقاً فقط، ولا إنساناً قادراً على شرح المعاني فقط، بل يريد أن ينشئ إنساناً متقياً؛ إنساناً إذا فهم خاف، وإذا خاف استقام، وإذا استقام صار علمه نوراً لا حجةً عليه.

وهذه مسألة دقيقة جداً: قد يكون العلم بالقرآن باباً إلى رفعة عظيمة، وقد يكون حجةً ثقيلة إذا لم يصحبه تقوى. قد يعرف الإنسان وجوه العربية، ويستخرج لطائف البيان، ويشرح دقائق النظم، ثم يبقى قلبه بعيداً عن الخشية، ولسانه بعيداً عن الصدق، وسلوكه بعيداً عن العدل. عندها يكون قد وقف عند أدوات الآية ولم يبلغ غايتها؛ أخذ عربياً ولم يبلغ يتقون، وتأمل غير ذي عوج ولم يسمح له أن يقوم عوجه.

إنّ من أخطر ما قد يقع لطالب العلم أو الكاتب أو المتدبر أن يتحول القرآن عنده إلى مادةٍ للدهشة الذهنية، لا إلى مصدرٍ للتركية. أن يفرح بما يفتح الله عليه من المعاني، ثم لا يسأل نفسه: ماذا فعل هذا المعنى بي؟ هل جعلني أخشى الله أكثر؟ هل قوم لساني؟ هل خفف من كبريائي؟ هل جعلني أعدل في خصومتي؟ هل جعلني أصدق في نيتي؟ هل جعلني أرحم بعباد الله؟ هل جعلني أفرّ من المعصية؟ هل جعلني أرى الآخرة أقرب؟

فالبیان القرآني إذا لم يبلغ هذه المناطق من الإنسان، بقي أثره ناقصاً. ليس لأنه ناقص في ذاته، بل لأن المتلقي لم يفتح له الطريق إلى داخله. فالآية تقول: **(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**، كأنها تضع معيار الانتفاع: كل فهم لا يتحول إلى وقاية،

وكل معرفة لا تثمر خشية، وكل إعجاب لا ينتهي إلى امتثال، لم يبلغ بعد تمام المقصود.

وهذا لا يعني أن كل قارئ يبلغ التقوى دفعةً واحدة، ولا أن الإنسان لا يعثر في الطريق؛ فالقرآن يربي بالتدرج، ويوقظ بالتكرار، ويعيد على القلب الآيات حتى تلين قسوته، لكنه في كل مرة يدعوه إلى الغاية نفسها: أن يتقي. التقوى ليست لحظةً عابرة، بل مسارٌ طويل من اليقظة والمجاهدة والمراجعة، وكل آية تدخل في هذا المسار من بابٍ ما.

فآيات الوعد تبني التقوى بالرجاء، وآيات الوعيد تبنيها بالخوف، وآيات النعم تبنيها بالشكر، وآيات القصص تبنيها بالعبرة، وآيات الأحكام تبنيها بالامتثال، وآيات الآخرة تبنيها باستحضار المصير، وآيات التوحيد تبنيها بتعظيم الله، وآيات المنافقين تبنيها بالخوف من خبايا النفس، وآيات المؤمنين تبنيها بالتطلع إلى المقامات العالية. وكل ذلك بيانٌ واحدٌ يعمل في جهاتٍ متعددة من القلب.

ومن هنا فإن التقوى ليست ثمرة آية واحدة، بل ثمرة القرآن كله؛ غير أن آيتنا هذه تكشف العلاقة المنهجية بين البيان والتقوى: أن القرآن نزل بلسانٍ مبينٍ مستقيم حتى يمكن لهذه الثمرة أن تنبت. فكما تحتاج الأرض إلى ماءٍ صافٍ ومجرىٍّ مستقيم حتى يبلغها الري، تحتاج النفس إلى بيانٍ صافٍ وطريقٍ مستقيم حتى تبلغها الهداية.

واللغة في القرآن تؤدي هنا وظيفةً جليلة: إنها تنقل الإنسان من الإبهام إلى التحديد. والتقوى تحتاج إلى هذا التحديد؛ لأن الإنسان لا يتقي ما لا يعرف، ولا يحذر مما لا يتميز له، ولا يستقيم على طريقٍ لم تتضح معالمه. فالقرآن

يحدد له: هذا إيمان وهذا كفر، هذا توحيد وهذا شرك، هذا عدل وهذا ظلم، هذا إحسان وهذا إساءة، هذا معروف وهذا منكر، هذا صراط وهذا انحراف، هذه دار فانية وهذه دار باقية.

وحين تتحدد الأشياء في وعي الإنسان، يبدأ القلب في بناء موقفه. فالقرآن لا يتركه في مساحة رمادية تُريح الهوى، بل يعلمه الفرقان. والفرقان من أعظم لوازم التقوى؛ لأن من لم يفرّق بين الحق والباطل لا يستطيع أن يتقي الباطل، ومن لم يفرّق بين الطاعة والمعصية لا يستطيع أن يلزم الطاعة، ومن لم يفرّق بين زينة الدنيا وحقيقتها لا يستطيع أن ينجو من فتنها.

ولهذا كانت العربية القرآنية، بما فيها من وضوح ودقة، أداةً من أدوات الفرقان. ليست اللغة هنا مجرد صوت، بل ميزان تسمية؛ تسمي الأشياء كما هي في ميزان الله. والإنسان لا يبدأ في التقوى إلا حين يستعيد أسماء الأشياء من القرآن، لا من ضغط المجتمع ولا من زخرف الهوى. فإذا سمى القرآن الظلم ظلمًا، لم تعد تسميته سياسةً أو ضرورةً تُغيّر حقيقته. وإذا سمى الفساد فسادًا، لم تعد زخرفة المصطلحات تبرئه. وإذا سمى الإحسان إحسانًا، لم يعد جحود الناس له يسلب قيمته. وإذا سمى الآخرة حقًا، لم يعد غيابها عن الحس دليلاً على بعدها.

فالقرآن ينشئ التقوى أولاً بتطهير قاموس الإنسان. وهذا معنى عميق: أن تستقيم لغة الإنسان الداخلية قبل أن يستقيم عمله الخارجي. فكم من إنسانٍ يفسد لأنه غير الأسماء في داخله: سمى الكبر كرامة، والهوى حرية، والانتقام عدلاً، والغفلة راحة، والتسويق حكمة، والجبن سلامة، والتنازل عن الحق

واقعية. فإذا دخل القرآن، أعاد الأسماء إلى حقيقتها، وبدأت التقوى من لحظة الصدق في التسمية.

ومن هنا تكون التقوى ثمرةً للبيان لأن البيان يزيل التزوير. والإنسان إنما يضل كثيرًا حين يُزور على نفسه؛ لا يقول: أنا أتبع الهوى، بل يقول: أنا أبحث عن مصلحتي؛ لا يقول: أنا أخاف الناس، بل يقول: أنا أراعي الحكمة؛ لا يقول: أنا أظلم، بل يقول: أنا آخذ حقي؛ لا يقول: أنا غافل، بل يقول: أنا مشغول. والقرآن، غير ذي العوج، لا يشاركه هذه الخديعة، بل يكشفه برحمة حازمة.

وهذا الكشف قد يؤلم النفس أولًا، لكنه من أعظم أبواب الرحمة؛ لأن النفس إذا لم تُكشف لم تُشف، وإذا لم تعرف عوجها لم تطلب الاستقامة، وإذا لم تر مرضها لم تبحث عن الدواء. فالقرآن يجرح الوهم ليشفي القلب، ويهدم العذر الكاذب ليبنى الصدق، ويكشف الميل الخفي ليعيد الإنسان إلى الصراط.

ومن هنا نفهم أن التقوى ليست مجرد خوفٍ من العقوبة، بل يقظةٌ كاملة أمام الله. الخوف جزءٌ منها، لكنه ليس كلّها. فيها خوفٌ ورجاء، ومحبةٌ وتعظيم، وحياءٌ ومراقبة، وعلمٌ وعمل، وحذرٌ وثبات. إنها حالة القلب حين يتلقى البيان الإلهي فيعرف أنه مخاطبٌ ومسؤول، وأن حياته ليست عبثًا، وأن كل طريق لا يقوده إلى الله فهو خطر، ولو بدا مزينًا.

ولذلك فإن القرآن لا يصنع التقوى بالصراخ في وجه الإنسان، بل بالبيان العميق الذي يجعله يرى. وحين يرى، يخاف. وحين يخاف، يترك. وحين يترك لله، يجد في الترك حياة. وحين يستقيم، يكتشف أن التقوى ليست حرمانًا،

بل وقاية؛ ليست قيداً على الإنسان، بل حماية له من أن يهلك نفسه. فكما أن المسافر يتقي الحفرة لا لأنه يكره الطريق، بل لأنه يريد الوصول، كذلك المؤمن يتقي المعصية لا لأنه يكره الحياة، بل لأنه يعرف أن للحياة مآلاً، وأن الطريق إلى الله لا يُقطع بالغفلة.

وهذا المعنى ظاهر في لفظ التقوى ذاته؛ فهو ليس مجرد خوف، بل اتخاذ وقاية. والوقاية لا تكون إلا من شيء مؤذٍ أو مهلك. فالقرآن يعرف الإنسان بما ينبغي أن يتقيه: يتقي الشرك لأنه هدمٌ لأصل العبودية، ويتقي الظلم لأنه ظلمات، ويتقي الكبر لأنه منازعةٌ لمقام لا يليق بالعبد، ويتقي الرياء لأنه يفسد العمل من داخله، ويتقي الغفلة لأنها تمحو شعور المصير، ويتقي الشهوة المحرمة لأنها تجر القلب من حريته إلى عبوديته للهوى.

وهكذا تتحول التقوى إلى فقهٍ للحماية الروحية. والقرآن، ببيانه العربي غير ذي العوج، هو الذي يرسم خريطة الأخطار. فلا يترك الإنسان يظن أن الخطر في الخارج فقط، بل يريه أن أخطر الفتن قد تبدأ من الداخل: من رغبة غير منضبطة، أو نية غير صادقة، أو كلمة متسرعة، أو حسدٍ دفين، أو كبرٍ صامت، أو تعلّقٍ بالدنيا يزاحم محبة الله.

ومن هنا كان البيان القرآني أخلاقياً في غايته. ليس أخلاقياً بمعنى أنه يقدم وصايا سلوكية فحسب، بل بمعنى أنه يعيد بناء الضمير الذي تصدر عنه الأخلاق. فالقرآن لا يقول فقط: لا تكذب، بل يبني فيك تعظيم الصدق وخوف الله. ولا يقول فقط: لا تظلم، بل يريك عاقبة الظالمين، وسمع الله للمظلوم،

وميزان الآخرة. ولا يقول فقط: أحسن، بل يربط الإحسان بمحبة الله. ولا يقول فقط: اصبر، بل يفتح لك أفق الجزاء والمعية والتمكين.

وهذا هو الفرق بين القانون والتقوى. القانون يضبط السلوك من الخارج، أما التقوى فتقيم في الداخل حارساً لا ينام. القانون يسأل: ماذا فعلت؟ أما التقوى فتسأل: لماذا فعلت؟ ولمن فعلت؟ وماذا أخفيت؟ وما الذي أردته؟ القانون قد يعجز إذا غابت الشهود، أما التقوى تبدأ حين يغيب الشهود. والقرآن يريد أن يصنع هذا الحارس الداخلي؛ لذلك كان بيانه موجّهاً إلى القلب والعقل والضمير معاً.

واللغة هنا تؤدي دوراً لا يستغنى عنه؛ لأن الضمير لا يتشكل إلا بالمعاني، والمعاني لا تصل إلا بالعبارة، والعبارة إذا استقامت استقام أثرها. فالكلمة القرآنية ليست مجرد ناقلٍ للفكرة، بل مُنشئٌ لحالة. حين يقول القرآن: (وَاتَّقُوا اللَّهَ)، فليست الجملة خبراً بارداً، بل نداءً يضع العبد أمام جلال الله. وحين يقول: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)، فإنه لا يضيف معلومة فقط، بل يوقظ مراقبة. وحين يقول: (وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)، فإنه يعيد ترتيب شعور الإنسان بالنهايات.

وهكذا تعمل اللغة القرآنية: تخبر وتربي، تبين وتركي، تعلّم وتوقظ، تحكم وتداوي. وهذا لا يكون لأي لغةٍ إلا حين تدخل في سلطان الوحي. فالعبارة البشرية قد تصف المراقبة، أما العبارة القرآنية فتستحضرها في القلب المؤمن لأنها كلام الله، ولأنها واقعةٌ في نظمٍ محفوظٍ يتعبد بتلاوته، ولأنها تحمل من الجلال ما يتجاوز حدود البيان البشري.

وقد يقول قائل: إن كثيراً من الناس يسمعون القرآن ولا يتقون. وهذا صحيح من جهة الواقع، لكنه لا يقدح في الآية، بل يكشف اختلاف القلوب في التلقي. فالشمس تشرق، لكن الأعمى لا يبصرها، والدواء نافع، لكن من لم يتناوله لا ينتفع به، والماء طهور، لكن من أغلق فمه لا يروى. القرآن من جهته هدى، لكن الإنسان قد يعرض، أو يقسو، أو يكابر، أو يتلقى بلسانٍ حاضر وقلبٍ غائب.

ولهذا جاءت الآية بصيغةٍ تضع الإنسان في مقام الرجاء والمسؤولية: **(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**. أي أن هذا البيان قد أُعطي لهم لنتهيأ لهم أسباب التقوى، لا لئسلبوا اختيارهم، ولا ليكونوا متقين قهراً. فالقرآن يهدي، لكنه لا يلغي الابتلاء؛ يبين، لكنه لا يجبر القلب على الخضوع؛ يقيم الحجة، لكنه يترك للإنسان أن يظهر ما في داخله من صدق أو عناد.

وهذا من عدل الله ورحمته: أن التقوى لا تكون إلا بعد بيان. ولذلك كان إرسال الرسل وإنزال الكتب من تمام الحجة والرحمة. فمن رحمة الله أنه لم يترك الإنسان لعقله وحده في ظلمات الشهوة والجهل، ومن عدله أنه لم يحاسبه بلا بيان. فجاء القرآن عربياً غير ذي عوج، ليكون البيان في أعلى درجاته، ثم تكون المسؤولية بعد ذلك في أعلى وضوحها.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن التقوى هي الوجه العملي لفهم القرآن. فمن فهم القرآن على وجهه بدأ يتقي بحسب ما فتح الله له. قد لا يبلغ الكمال، لكنه يتحرك. يتغير موقفه من الكلمة، ومن المال، ومن النظر، ومن الخصومة، ومن النعمة، ومن المصيبة، ومن الزمن، ومن الموت. لا يعود كما كان؛ لأن

القرآن إذا وصل إلى موضع القرار، أحدث فيه انقلاباً هادئاً: يجعل الحلال أحب إليه من الحرام ولو كان الحرام أقرب، ويجعل رضا الله أعظم من رضا الناس ولو كان الناس أقدر على الضغط، ويجعل الآخرة أصدق في حسه من متاع يلمع ثم يزول.

والتقوى بهذا المعنى ليست انكماشاً عن الحياة، بل استقامة فيها. ليست أن يهرب الإنسان من الدنيا، بل أن لا تملكه الدنيا. ليست أن يترك العمل، بل أن يعمل بميزان. ليست أن يفقد جمال الحياة، بل أن يراه منضبطاً بنور الله. فالقرآن لا ينشئ إنساناً خائفاً من كل شيء، بل إنساناً يخاف الله فيستقيم مع كل شيء: مع نفسه، وأهله، وماله، وقوته، وضعفه، وعلمه، وجهله، وفرحه، وحزنه.

وهنا نرى أن التقوى هي أرقى ثمرة للبيان؛ لأن البيان إذا لم يربط الإنسان بالله قد يزيده قدرة على المراوغة، أما إذا قاده إلى التقوى صار نوراً. كم من إنسانٍ أوتي قدرة على الكلام فاستعملها في تضليل الناس، وكم من عقلٍ حادٍ صار أداةً لتبرير الانحراف، وكم من معرفةٍ واسعةٍ صارت باباً للكبر. لذلك لا يكفي أن يعرف الإنسان، بل لا بد أن يتقي بما عرف.

ومن هنا جاءت الغاية القرآنية لتحاكم كل علمٍ بالوحي: هل جعلك أتقى؟

إذا عرفت العريّة، فهل زادك ذلك خشيةً من أن تحرف المعنى؟

إذا فهمت البلاغة، فهل زادك ذلك تعظيماً لمن تكلم بهذا القرآن؟

إذا تدبرت الآية، فهل دخلت تحت سلطانها؟

إذا رأيت أنها غير ذي عوج، فهل رضيت أن تكشف عوجك؟

إذا قرأت (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، فهل سألت نفسك: أين موضع التقوى الذي تطلبه هذه الآية مني؟

إن القرآن لا يترك القارئ في منطقة الحياد؛ كل آية، بطريقة ما، تدعوه إلى موقف. قد يكون الموقف توبةً، أو شكرًا، أو صبرًا، أو إنفاقًا، أو عفوًا، أو ثباتًا، أو صدقًا، أو ترك معصية، أو تصحيح نية، أو رد مظلمة، أو كف لسان، أو حسن ظن بالله، أو خوفًا من النفاق، أو رجاء في الرحمة. المهم أن القرآن يريد أن يتحول إلى حياة.

ولهذا فإن (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) تضع حدًا فاصلاً بين قراءة القرآن بوصفه نصًا، وقراءة القرآن بوصفه وحيًا. النص يُدرس، أما الوحي فيُتلَقى. النص قد يُعجبك، أما الوحي يطالبك. النص قد تقف خارجه، أما الوحي يدخلك في محاكمته. النص قد يكون موضوعًا لك، أما الوحي يجعلك أنت موضوعًا لسؤاله. ومن هنا يصبح القرآن ليس شيئًا نتكلم عنه فقط، بل شيئًا يكلمنا.

وحين يكلمنا القرآن بهذا البيان العربي غير ذي العوج، فإنه لا يخاطب فينا العقل وحده، ولا القلب وحده، ولا السلوك وحده؛ بل يخاطب الإنسان كله. وهذا من أسرار قدرته على إنشاء التقوى؛ لأنه لا يترك فجوة بين المعرفة والوجدان والعمل. فهو يعطي العقل الحجة، ويعطي القلب الخشية، ويعطي الإرادة الأمر، ويعطي السلوك الطريق، ويعطي المصير حضوره الدائم.

فالإنسان قد يعرف الحق بعقله ولا يتحرك، وقد يتأثر بقلبه ثم ينسى، وقد يعمل بجوارحه عادةً دون وعي. أما القرآن فيجمع هذه الجهات: يعلم، ويذكر،

ويأمر، وينهى، ويعد، ويتوعد، ويقص، ويضرب الأمثال، حتى لا يبقى الإنسان ممزقاً بين عقلٍ يعلم وقلبٍ غافل وسلوكٍ منفلت.

ومن هنا تكون التقوى بناءً متكاملاً، والقرآن هو مهندس هذا البناء. يبدأ بتصحيح التصور: من هو الله؟ من هو الإنسان؟ ما الدنيا؟ ما الآخرة؟ ثم يصحح الشعور: ماذا تحب؟ مم تخاف؟ إلى من ترجو؟ ثم يصحح الإرادة: ماذا تختار؟ ماذا تترك؟ ثم يصحح العمل: كيف تعبد؟ كيف تعامل؟ كيف تحكم؟ كيف تصبر؟ كيف تشكر؟ وهذا كله لا يكون إلا ببيانٍ لا عوج فيه.

واللافت أن التقوى في القرآن كثيراً ما ترتبط بالعلم والتذكر والعقل؛ لأن التقوى ليست حالة غريزية عمياء، بل ثمرة يقظة. لكن هذه اليقظة ليست عقلانية باردة؛ إنها عقلٌ أضاءه الوحي، وقلبٌ خالطه الخوف والرجاء، وإرادةٌ رأت الطريق. ولذلك يقول القرآن في مواضع كثيرة: **لعلكم تتقون، لعلكم تعقلون، لعلكم تذكرون**، كأن العقل والتذكر والتقوى ليست جزراً منفصلة، بل مراحل في حركة الهداية.

وفي آيتنا هذه، جاءت **لعلهم يتقون** بعد قرأناً عربياً غير ذي عوج، لا بعد مجرد أمرٍ أو نهْي، مما يدل على أن التقوى قد تنشأ من إدراك طبيعة القرآن نفسه؛ أن تعرف أنك أمام كتابٍ عربيٍّ مبينٍ مستقيمٍ من عند الله، فهذا الوعي بذاته ينبغي أن يهز القلب. لأنك لست أمام كلامٍ يمكن التلاعب به، ولا أمام طريقٍ يمكن اتهامه، ولا أمام معنىٍ يمكن الاستهانة به؛ أنت أمام حجةٍ رحيمةٍ مستقيمة.

ومن هنا فإن أول تقوى تطلبها الآية هي التقوى في التعامل مع القرآن نفسه. أن تتقي الله في فهمه، فلا تقول عليه بلا علم. وأن تتقي الله في تأويله، فلا تحمله هوى نفسك. وأن تتقي الله في تلاوته، فلا تجعله صوتًا بلا قلب. وأن تتقي الله في العمل به، فلا تجعل معرفتك به حجةً عليك. وأن تتقي الله في تبليغه، فلا تستعمله للغلبة الشخصية أو الزينة الفكرية، بل للهداية والحق.

وهذه منزلة عالية: أن تكون التقوى حارسةً لعلاقتك بالقرآن قبل أن تكون ثمرةً منها. فمن اتقى الله في القرآن، فتح الله له من القرآن. ومن دخل عليه مستكبرًا، زاده القرآن حجةً عليه. ومن جاءه طالبًا للهدى، وجده هدى. ومن جاءه طالبًا للجدل، وجد فيه ما يفضح جدله. فالقرآن واحد، لكن المداخل مختلفة، والقلوب أوعية.

إن (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) تعلّمنا أن الغاية من البيان ليست السيطرة على الآخر، بل إصلاح الذات. ليست أن نملك آياتٍ نرمي بها خصومنا، بل أن نملك قلوبًا ترتجف حين تسمع كلام ربها. ليست أن نتزين بالمعرفة، بل أن نتطهر بها. ليست أن نرتفع على الناس بالفهم، بل أن نتواضع لله بما فهمنا.

وهذا مهم للكاتب والمتدبر خاصة؛ لأن التعامل مع المعاني العالية قد يفتح بابًا خفيًا من الكبر إذا لم تصحبه مراقبة. قد يظن صاحب العبارة الجميلة أنه صار مالكًا للمعنى، وينسى أن المعنى نعمة، وأن الفتح فضل، وأن الكلمة أمانة، وأن أجمل ما في الكتابة عن القرآن أن تقود صاحبها قبل قارئها إلى الخضوع. فمن كتب عن التقوى ولم يطلبها لنفسه أولًا، كان كمن يصف الماء وهو عطشان لا يشرب.

ولذلك، فإنّ هذا الفصل ليس فصلاً في مفهوم التقوى فقط، بل في محاكمة علاقتنا بالبيان كله. هل نريد من اللغة أن تلمع أم أن تهدي؟ هل نريد من الفهم أن يرفعنا أمام الناس أم أن يضعنا في مقام العبودية؟ هل نريد من القرآن أن يوافقنا أم أن يصححنا؟ هل نريد من العربية أن تكون راية اعتزاز أم محراب فهم؟

إنّ الآية تختار الطريق: العربية لأجل البيان، والبيان لأجل الاستقامة، والاستقامة لأجل التقوى. وكل خروج عن هذا الترتيب يفسد شيئاً من علاقتنا بالقرآن. فإذا جعلنا العربية للمفاخرة ضاعت التقوى، وإذا جعلنا البيان للدهشة ضاعت الهداية، وإذا جعلنا الاستقامة للجدل ضاع العمل، وإذا جعلنا القرآن مادة ثقافية ضاع مقام الوحي.

ومن هنا يمكن أن نقول إنّ التقوى هي التي تحفظ البيان من الفساد بعد أن يحفظ البيان التقوى من الجهل. علاقة متبادلة دقيقة: البيان يعلمك ماذا تتقي، والتقوى تمنعك أن تعبت بالبيان. البيان يفتح لك الطريق، والتقوى تجعلك تمشي فيه بأدب. البيان يكشف لك الحق، والتقوى تمنعك من بيعه للهوى.

وهذا سرّ قوله تعالى في موضع آخر: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)؛ فهناك علمٌ يثمر التقوى، وهناك تقوى تجلب نور العلم. فإذا اجتمع العلم والتقوى، صار الفهم نوراً على نور. أما علمٌ بلا تقوى فقد يصير عوجاً جديداً، وتقوى بلا علم قد تصير ضعفاً في البصيرة. والقرآن يريد للإنسان أن يجمع النورين: نور البيان، ونور الخشية.

وعلى هذا، فإنّ (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) ليست نهاية الآية فقط، بل معيار قراءة الكتاب كله. فإذا قرأت قصةً، فاسأل عن موضع التقوى فيها. وإذا قرأت حكمًا، فاسأل عن التقوى التي يحرسها. وإذا قرأت مثلاً، فاسأل عن الغفلة التي يكشفها. وإذا قرأت وصف الجنة، فاسأل عن الرجاء الذي يدعوك للعمل. وإذا قرأت وصف النار، فاسأل عن الذنب الذي ينبغي أن تفر منه. وإذا قرأت آيةً في الكون، فاسأل عن التعظيم الذي ينبغي أن يقوم في قلبك.

وبهذا تتحول التلاوة إلى تربية مستمرة. لا يعود القرآن كتابًا يُفتح في أوقاتٍ محددة فقط، بل يصير ميزانًا حاضرًا في تفاصيل الحياة. حين تتكلم، يسألك: هل اتقيت الله في الكلمة؟ حين تخاصم، يسألك: هل اتقيت الله في العدل؟ حين تُعطى قوةً، يسألك: هل اتقيت الله في الضعيف؟ حين تُبتلى، يسألك: هل اتقيت الله في الصبر؟ حين تُنعم، يسألك: هل اتقيت الله في الشكر؟ حين تخلو، يسألك: هل اتقيت الله حيث لا يراك الناس؟

وهنا نكتشف أن التقوى ليست فصلًا من فصول الدين، بل روحٌ تسري في الدين كله. ولذلك جعلها القرآن ثمرةً لهذا البيان، لأنها القادرة على تحويل المعرفة إلى حياة. من غير التقوى قد يعرف الإنسان ولا يعمل، وقد يعمل ولا يخلص، وقد يتكلم ولا يصدق، وقد يتدين ولا يرحم، وقد يخاصم باسم الحق فيظلم. التقوى هي الميزان الداخلي الذي يمنع التدين نفسه من أن يعوج.

وهذا معنى عميق: القرآن غير ذي عوج، لكنه يريد أن يكون تديننا أيضًا غير ذي عوج. فليس كل من انتسب إلى القرآن استقام به. قد يُتلى القرآن باللسنة لا تتقي، وقد يُرفع شعارًا في خصوماتٍ لا عدل فيها، وقد يُستشهد به في غير

موضعه، وقد يُعامل معه بعاطفة بلا علم أو علم بلا خشية. ولذلك نحتاج إلى التقوى في كل مراحل العلاقة بالقرآن: تلاوة وفهماً واستنباطاً وتنزيلاً وتبليغاً.

إنّ الغاية الأخلاقية للبيان القرآني تعني أن كل جمالٍ في القرآن متجهٌ إلى إصلاح الإنسان. فإذا أدهشك النظم، فليقدك إلى تعظيم المتكلم سبحانه. وإذا بهرك الإيقاع، فليوقظ فيك الخشية. وإذا فتح لك المعنى، فليطالبك بالعمل. وإذا رأيت الاستقامة، فلتعرض عليها اعوجاجك. أما أن تخرج من الجمال القرآني بمجرد انبهار، فهذا أقل من مراد الآية.

ومن هنا يكون السؤال العملي بعد هذا الفصل: كيف نقرأ القرآن قراءةً تنشئ التقوى؟

ونقرأه أولاً بتصديقٍ أنه كلام الله، لا مادةٌ للذوق فقط.

ونقرأه ثانياً بعلمٍ يحترم عريّته وسياقه.

ونقرأه ثالثاً بتواضعٍ يعترف أن العوج فينا لا فيه.

ونقرأه رابعاً بسؤالٍ دائم: ما الذي تطلبه هذه الآية مني؟

ونقرأه خامساً بتكرارٍ وصبر؛ لأن القلب لا يستقيم دفعةً واحدة.

ونقرأه سادساً بدعاءٍ أن يجعل الله القرآن ربيع القلب ونور الصدر وجلاء

الحزن وذهاب الهم.

وهكذا لا تبقى التقوى مفهوماً معلقاً، بل تصير ثمرةً عمليةً لتلقي القرآن العربي غير ذي العوج.

ومن تمام هذا المعنى أن نعلم أن القرآن لا يُنشئ التقوى فقط في الفرد، بل في الأمة. فالأمة التي تتلقى القرآن كما ينبغي تتقي الله في سياستها، واقتصادها،

وقضائها، وعلاقاتها، وقوتها، وضعفائها، وعهودها، ودمائها، وأموالها. لأن التقوى إذا بقيت شعورًا فرديًا لا يمتد إلى العمران، فقد حُصرت في نطاق أضيق من مراد القرآن. فالقرآن جاء ليقوم الإنسان والمجتمع معًا على صراط الله.

واللغة هنا أيضًا ذات أثرٍ أممي؛ لأن الأمة التي يختل فيها البيان يختل فيها الوعي العام. فإذا فسد خطابها، فسدت قراراتها. وإذا عوّدت الناس على المصطلحات المضللة، ضاعت معاييرهم. وإذا ابتعدت عن القرآن، فقدت الميزان الأعلى الذي يردّ اللغة إلى الصدق. ولهذا فإن عودة الأمة إلى القرآن العربي غير ذي العوج ليست عودةً روحيةً فحسب، بل عودةً إلى ميزان حضاريّ يحفظ الوعي من الانحراف.

وهذا يفتح بابًا واسعًا: التقوى ليست انسحابًا من التاريخ، بل شرطٌ لصناعة تاريخٍ عادل. الأمة المتقية لا يعني أنها أمة ضعيفة أو منعزلة، بل أمة تعرف أن القوة بلا تقوى طغيان، وأن العلم بلا تقوى غرور، وأن المال بلا تقوى فساد، وأن السياسة بلا تقوى مكر، وأن البيان بلا تقوى تضليل. ولذلك تحتاج الأمم إلى التقوى كما يحتاجها الأفراد؛ لأن عوج الأمم أخطر من عوج الأفراد، إذا صار نظامًا وثقافةً وقانونًا وخطابًا عامًا.

ومن هنا كان القرآن كتاب تقوى بمعنى شامل: يقيم الفرد من داخله، وقيم الأمة في مسارها، وقيم اللغة في وظيفتها، وقيم العقل في حدوده، وقيم العمل في مقصده. وهذا كله يبدأ من البيان؛ لأن كل فسادٍ كبير يسبقه غالبًا

فساداً في التصور، وكل فسادٍ في التصور يمر عبر لغةٍ أو معنى أو تسمية. فإذا جاء القرآن ببيانه المستقيم، كان أول ما يفعله أن يطهر منابع الوعي.

ولهذا فإن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ بعد ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ يضع أمامنا نظريةً كاملة في الإصلاح: لا إصلاح بلا بيان، ولا بيان بلا استقامة، ولا استقامة بلا تقوى، ولا تقوى بلا تلقي الوحي كما أنزله الله.

إن التقوى هنا ليست ثمرةً جانبية، بل الغاية التي تكشف لماذا كانت العربية مهمة، ولماذا كان نفي العوج مهمًا، ولماذا كان القرآن يتلى ويتكرر ويُحفظ ويُتدبر. كل ذلك لكي لا يبقى الإنسان سائبًا في العالم، محكومًا بالهوى، غارقًا في الأسماء المزيفة، مطمئنًا إلى الدنيا، ناسيًا لقاء الله.

والقرآن حين يقول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فإنه يفتح للإنسان بابًا عظيمًا من الرجاء: ما دام البيان قد بلغك، وما دام الطريق قد اتضح، وما دام القرآن بين يديك، فإمكان التقوى مفتوح. لست محكومًا بماضيك، ولا بعوجك القديم، ولا بغفلتك السابقة؛ تستطيع أن تعود، أن تسمع من جديد، أن تجعل الآية تبدأ فيك، أن تسمح لهذا البيان أن يطهر لغتك الداخلية، ويعيد ترتيب قلبك، ويقيم فيك حارس الخشية.

وهذا من جمال القرآن: أنه لا يكشف عوج الإنسان ليقنّطه، بل ليقيمه. لا يفضح الغفلة ليحطم صاحبها، بل ليوقظه. لا يذكر النار ليغلق باب الرجاء، بل ليمنعك من الطريق إليها. لا يذكر التقوى كمرتبةٍ مستحيلة، بل كغايةٍ مفتوحة لمن صدق.

ومن هنا نختم هذا الفصل بهذه الحقيقة: إن البيان القرآني ليس طريقاً إلى المعرفة وحدها، بل إلى النجاة. والعربية القرآنية ليست مجرد لسان يفهم، بل لسان يوقظ. ونفي العوج ليس مجرد ضمان عقلية، بل رحمة أخلاقية. والتقوى ليست خاتمة الآية، بل مقصدها وروحها وثمرتها.

فمن قرأ القرآن عربياً غير ذي عوج، ثم لم يسأل: كيف أتقي؟ فقد فاتته قلب الآية. ومن قرأه وسأل، فقد بدأ الطريق.

وفي الفصل القادم ننتقل إلى وجه آخر من وجوه هذه الحقيقة: العربية بين الإعجاز والحجة؛ كيف كان نزول القرآن بالعربية تحدياً لأهل اللسان، وحجة على المخاطبين، ثم كيف تجاوز الإعجاز حدود العجز عن المعارضة إلى القدرة على إعادة بناء الإنسان، حتى يصبح أعظم الإعجاز أن يدخل القرآن القلب فلا يتركه كما كان.

الفصل السابع

العربية بين الإعجاز والحجة

لم تكن عربية القرآن مجرد لغة أنزل بها الخطاب، بل كانت ميداناً ظهر فيه عجز الإنسان أمام كلام الله، ومجالاً قامت فيه الحجة على أهل اللسان أولاً، ثم على الناس جميعاً بما يحمله هذا الكتاب من بيان لا يُعارض، وهداية لا تُدافع، واستقامة لا يجد المنصف فيها ميلاً ولا اضطراباً. فحين قال الله تعالى: **(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**، كان في هذا الوصف إشارة إلى أن العربية لم تكن ظرفاً خارجياً للوحي، بل كانت جزءاً من إقامة البرهان: لقد جاءهم القرآن في اللسان الذي يعرفونه، وبالبيان الذي يدركون أسرارَه، وفي المجال الذي كانوا يرون فيه أنفسهم أهل السبق والاعتدار، ثم وقفوا أمامه عاجزين.

وهذه هي المفارقة التي لا تنقضي دهشتها: أن القرآن لم يعجزهم لأنه جاءهم بما لا يعرفون من جنس الكلام، بل لأنه جاءهم من جنس ما يعرفون ثم علا على طاقتهم. لم تكن حروفه غريبة عنهم، ولا ألفاظه مقطوعة عن لسانهم، ولا تراكيبه خارجة عن نظام العربية، ومع ذلك أحسّوا أن هذا الكلام ليس كلام شاعر، ولا خطيب، ولا كاهن، ولا حكيم من حكماء العرب، بل كلام يملك من السلطان على الوجدان والعقل واللغة ما لا يملكه كلام البشر.

ولو نزل القرآن بلسانٍ لا يعرفونه، لوجد المعاند بابًا يقول منه: لو فهمناه لعارضناه. ولو جاء خارج سنن البيان المألوفة، لقالوا: هذا ليس من جنس ما نتكلم به حتى يقع التحدي. لكنه نزل عربيًّا، وواجههم في ميدانهم، وخاطبهم بأدواتهم، ثم كشف لهم أن الأدوات التي يملكونها لا تكفي لصناعة مثل هذا الكتاب؛ لأن سر القرآن ليس في الحروف وحدها، بل في المتكلم سبحانه، وفي النظم الذي رتبّه الله، وفي الهداية التي بثها الله، وفي الحق الذي لا عوج فيه.

ولذلك كانت العربية في القرآن حجةً من وجهين: حجةً من جهة الفهم، وحجةً من جهة العجز. فمن جهة الفهم، لا يستطيع المخاطب الأول أن يقول إن الخطاب لم يبلغه، أو إن اللسان حال بينه وبين المعنى؛ فقد جاءه القرآن عربيًّا مبينًا. ومن جهة العجز، لا يستطيع أن يدّعي أن امتناعه عن الإتيان بمثله كان بسبب جهله بأدوات الكلام؛ فقد كان سيد هذه الأدوات، وصاحب الفصاحة والبيان، ومع ذلك بقي عاجزًا.

وهذا يبين أن الإعجاز ليس معزولاً عن الحجة، وأن الحجة ليست معزولةً عن البيان. فالقرآن يعجز لأنه فوق طاقة البشر، ويحجّ لأنه واضح الدلالة، ويهدي لأنه غير ذي عوج. ولو كان معجزًا غامضًا لم تقم به الحجة على الوجه الأكمل، ولو كان واضحًا غير معجز لظن الناس أنه من جنس كلامهم، ولو كان بليغًا غير هادٍ لكان أثره إعجابًا لا تقوى. لكنه جمع ذلك كله: إعجازًا يقطع دعوى المعارضة، وبيانًا يقطع عذر الجهل، واستقامةً تقطع مسالك التأويل الفاسد، وغايةً تقود إلى التقوى.

ومن هنا ينبغي ألا نخترل الإعجاز القرآني في باب البلاغة وحده، وإن كانت البلاغة من أعظم أبوابه. فالإعجاز القرآني أوسع من أن يُحبس في جمال اللفظ أو غرابة النظم أو قوة التصوير؛ إنه إعجازٌ في اجتماع ما لا يجتمع في كلام البشر على هذا الوجه: بيانٌ عالٍ لا يتعالى على الفطرة، وعمقٌ لا يتحول إلى غموض، وإيجازٌ لا يخلّ بالمعنى، وتفصيلٌ لا يثقل النفس، وترهيبٌ لا يقطع الرجاء، وترغيبٌ لا يفتح باب الأمن من مكر الله، وتشريعٌ لا ينفصل عن الأخلاق، وقصةٌ لا تنفصل عن العبرة، وغيبٌ لا ينفصل عن المسؤولية، وجمالٌ لا ينفصل عن الهداية.

إن كلام البشر، مهما بلغ، تظهر عليه حدود صاحبه: حد العلم، وحد التجربة، وحد المزاج، وحد العصر، وحد الغرض. أما القرآن فيتجاوز هذه الحدود؛ لأنه ليس نابعاً من نفسٍ بشريةٍ محدودة، بل منزلٌ من عند الله. ولهذا تجد فيه الخطاب الذي يصلح للبدوي في صحرائه، وللعالم في محرابه، وللمؤمن في خلوته، وللأمة في نهضتها، وللإنسان في كل زمان. لا لأنه يتلون بأهواء الأزمنة، بل لأنه يحمل من الحق والاستقامة ما يحاكم الأزمنة كلّها.

ولذلك كان عجز العرب عن معارضته ليس حدثاً تاريخياً مضى، بل آيةً ممتدة. فالعجز لا يعني فقط أنهم لم يستطيعوا أن يصوغوا نصّاً يشبهه في زمن النزول، بل يعني أن طبيعة القرآن نفسها بقيت فوق المحاكاة. فقد مرّت القرون، وتبدلت المدارس، وظهر البلغاء والكتّاب والشعراء والخطباء، وبقي القرآن في مقامه: يُتلى فلا يخلق، ويُعاد فلا يملّ المؤمن منه، ويُفسّر فلا تنفد دلالته، ويُحفظ فلا تضيع هيئته، ويُترجم معناه إلى اللغات ويبقى أصله العربي هو المعجزة المتلوة.

وهنا نحتاج إلى فهم أدق لمعنى التحدي. إن التحدي القرآني ليس مباراةً لفظيةً مجردة، كأن المطلوب صناعة نص جميل فحسب، بل هو تحدٍّ بكلامٍ يحمل صفات القرآن: هدايةً، وحقاً، ونظماً، وصدقاً، واستقامةً، وسلطاناً على القلوب، وقدرةً على إنشاء أمة، وربطاً بين الدنيا والآخرة، وكشفاً للغيب، وتشريعاً، وميزاناً، ونوراً. فمن ظن أن الإعجاز مجرد إيقاع أو فصاحة، فقد صغر من شأن المعجزة؛ لأن القرآن ليس قصيدةً فائقة، بل وحيٌّ كامل.

وهذا ما يجعل الحجة القرآنية أعمق من الحجة البلاغية وحدها. فالعربي الأول كان يسمع القرآن فيدرك علو بيانه، لكن القرآن لم يكن يكتفي بأن يسلبه القدرة على المعارضة؛ كان يطالبه بالإيمان. لم يكن يقول له فقط: اعجز عن الإتيان بمثله، بل يقول له: اتق الله. وهذا هو الفرق بين الإعجاز والحجة حين يجتمعان: الإعجاز يكسر غرور القدرة، والحجة توقظ مسؤولية القلب.

فقد يعترف الإنسان في داخله أنه عاجز، ثم يكابر. وقد يدرك أن الكلام فوق طاقة البشر، ثم تمنعه مصلحته أو كبرياؤه أو عصبيته. ولذلك كان القرآن لا يعالج مسألة الدليل وحدها، بل يعالج موانع قبول الدليل. يعالج الكبر، والهوى، وحب الرياسة، والتقليد الأعمى، والخوف من الناس، والاستغراق في الدنيا. فالحجة قد تقوم، ولكن القلب يحتاج إلى تقوى حتى يخضع للحجة.

ومن هنا تعود بنا الآية إلى خاتمتها: **(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**. فالعربية تقوم بها الحجة، ونفي العوج يؤكد استقامة الحجة، والإعجاز يكشف أن هذا البيان من عند الله، لكن التقوى هي التي تجعل الإنسان يستجيب. ومن غير التقوى قد يرى

الإنسان الآية ثم يطلب الهرب منها، ويسمع القرآن ثم يقول: هذا سحر، أو شعر، أو أساطير، لا لأن الدليل ضعيف، بل لأن النفس لا تريد أن تخضع.

وهذا يكشف أن مشكلة الإنسان مع القرآن ليست دائماً مشكلة معرفة، بل كثيراً ما تكون مشكلة إرادة. قد يكون الطريق واضحاً، لكن القلب لا يريد السير. قد تكون الحجة قائمة، لكن الكبر يأبى. قد يكون البيان عربياً غير ذي عوج، لكن النفس تحب عوجها. وهنا يأتي القرآن لا ليعطي الدليل فقط، بل ليزكي القابل للدليل، وليجعل التقوى شرطاً في الانتفاع بالحجة.

إن القرآن في إعجازه لا يخاطب العقل وحده، ولا الذوق وحده، بل يخاطب مجموع الإنسان. فهو يعجز العقل بانتظام حقائقه، ويعجز اللسان بعلو بيانه، ويعجز القلب بسلطان تأثيره، ويعجز التاريخ بقدرته على البقاء والفعل، ويعجز النفس بأنه يكشفها في دقائقها كأنها تقرأ نفسها في مرآته. ومن ثمّ فالإعجاز ليس جداراً يقف أمام الإنسان ليقول له: لن تستطيع، بل بابٌ يفتح له ليقول: هذا من عند الله، فاتبع.

ولذلك فإن أعظم الإعجاز ليس أن يعجز الإنسان عن الإتيان بمثل القرآن فقط، بل أن يعجز عن البقاء كما كان إذا دخل القرآن إلى قلبه حقاً. الإعجاز الأكبر أن يسمع الإنسان الآية التي سمعها مراراً، ثم في لحظة صدق تنقلب داخله إلى نور، فيرى نفسه، ويستحي من ربه، ويتوب من ذنبه، ويزهد في باطلٍ كان يطلبه، ويقوى على طاعةٍ كان يستثقلها. هذا أيضاً من إعجاز القرآن: أنه لا يغيّر العبارة فقط، بل يغيّر الإنسان.

فالكتاب الذي يعجز البلغاء عن معارضته هو نفسه الكتاب الذي يعجز القلوب الصادقة عن مقاومة نوره. وإذا كانت العربية مجال إعجازه الأول، فإن الإنسان مجال أثره الدائم. لقد نزل في لسان العرب، لكنه لم يبق حبس ذلك اللسان من حيث الهداية؛ بل تحرك في العالم، ودخل قلوبًا لا تعرف العربية إلا قليلًا، ومع ذلك وجدت في معانيه ما يحييها، ثم ظل اللفظ العربي هو الأصل الذي تعود إليه، كأن البشرية كلها تُدعى إلى أن تقترب من هذا النبع كما نزل.

ومن هنا ينبغي أن نفهم عالمية الحجة القرآنية. نعم، التحدي الأول وقع في بيئة عربية فصيحة، لكن دلالة القرآن لا تقف عند العرب. فالعرب شهدوا للسان، والأمة حفظت نصه، والعلماء بيّنوا معانيه، والترجمات تنقل قبسًا من هدايته، والقلوب في كل أمة تجد فيه من الحق ما يوقظها. غير أن أصل الحجة يبقى محفوظًا في النص العربي؛ لأنه هو القرآن المنزل، لا ترجمة المعنى، ولا شرح المفسر، ولا ذوق المتلقي.

وهذا يجعل العربية أمانة عالمية، لا ملكًا قوميًا. فالأمة العربية، من حيث قربها من لسان القرآن، ليست في مقام ترفٍ ثقافي، بل في مقام مسؤولية. إذا حفظت العربية حفظت مفتاحًا من مفاتيح الهداية للناس، وإذا أفسدت صلتها بالعربية أضعفت قدرتها على حمل القرآن كما ينبغي. والإنسان العربي، إذا كان يفهم من القرآن ما لا يفهمه غيره إلا بوسائط، فهو أشد محاسبة على الإعراض؛ لأن الحجة عليه أقرب.

وهنا تظهر خطورة الغفلة المعاصرة عن العربية القرآنية. ليست المسألة أن تضعف ملكة التعبير فحسب، بل أن يضعف الإحساس بالحجة. حين يصير اللسان بعيداً عن القرآن، يصير القلب أقل حساسيةً لدقائق الخطاب، ويحتاج إلى وسائط كثيرة ليدرك ما كان يمكن أن يلمسه مباشرة. وهذا لا يغلق باب الهداية، لكنه يجعل الطريق أثقل. ولذلك فإن تجديد الصلة بالعربية ليس مشروعاً أدبياً فقط، بل مشروع إيماني؛ لأنه إعادة وصل الأمة بلسان حجتها ومعجزتها وكتابها.

ومع ذلك، فإن القرب من العربية لا يكفي إذا غاب التعظيم. فقد كان في العرب من سمع القرآن بلسانه ثم لم يتبعه، وكان في غير العرب من بلغه معنى القرآن فخشع قلبه وأسلم وجهه لله. فالعربية تفتح الباب، لكن التقوى تدخل منه. واللسان يقيم الحجة، لكن القلب هو الذي يستجيب أو يعرض. ومن هنا لا ينبغي أن تتحول العربية إلى غرورٍ يبعد صاحبها عن روح القرآن؛ فكم من أعجميٍّ صادقٍ كان أقرب إلى هدى القرآن من عربيٍّ يتلوه ولا يتقي.

إن الحجة القرآنية عادلة؛ تعطي كل إنسانٍ بحسب ما بلغه من البيان، وتدعوه بحسب طاقته إلى الاقتراب من الأصل. لكن من أتيح له الأصل، ثم فرّ منه إلى سطحيةٍ أو لهوٍ أو عوجٍ في التأويل، فقد ضيع نعمةً عظيمة. وحين يقول الله: (قُرْآنًا عَرَبِيًّا)، فإن هذا النداء يقع على أهل العربية بثقلٍ خاص: أنتم أقرب إلى سماع النبذة الأولى للخطاب، فاحذروا أن تكونوا أبعد الناس عن التقوى.

ومن دلائل الإعجاز كذلك أن القرآن جعل العربية نفسها تتجاوز زمنها الأول. فقبل القرآن كانت العربية لغة قومٍ محددين، تتردد في أسواقهم وأشعارهم وخطبهم، فلما نزل القرآن صارت لغة عبادةٍ ومعرفةٍ وحضارةٍ وعلومٍ ممتدة. لقد خدم المسلمون العربية لأنها لغة القرآن، وخدمت العربية علوم القرآن لأنها وعاءه، ونشأت حول النص علومٌ هائلة: التفسير، والقراءات، والنحو، والبلاغة، وأصول الفقه، وعلوم الحديث، والمعاجم، ومناهج الاستنباط. وهذه الحركة العلمية الكبرى أثرت من آثار الإعجاز؛ إذ لم يكن القرآن نصًّا يُقرأ فقط، بل مركزًا أنشأ حوله عقول الأمة وعلومها ومناهجها.

ولو كان القرآن كلامًا بشريًا محدودًا، لاستنفدته القرون الأولى، أو صار أثرًا أدبيًّا يُدرس في التاريخ. لكنه بقي مولدًا للمعرفة، باعًا للأسئلة، مقيمًا للعلوم، مربيًا للنفوس، مستدعيًا للتدبر، وكأن كل جيل يجد فيه حاجته دون أن ينقص من عطائه شيء. وهذا من معنى كونه غير ذي عوج؛ لأن النص المعوج ينكشف اضطرابه مع الزمن، أما القرآن فيزداد ظهوره كلما ازدادت حاجة الناس إلى الميزان.

وفي كل عصرٍ يظهر وجهٌ من وجوه الحجة. في عصر الفصاحة الأولى ظهر سلطان البيان. وفي عصور بناء العلوم ظهر سلطان المنهج والاستنباط. وفي عصور الفتن الفكرية يظهر سلطان القرآن في حفظ المعنى من الدوبان. وفي عصور الاضطراب الروحي يظهر سلطان القرآن في إعادة الإنسان إلى الله. وفي عصور التلاعب باللغة يظهر سلطان القرآن في ردّ الأسماء إلى حقائقها. فهو حجة لا تنتهي؛ لأن عوج الإنسان لا ينتهي، والقرآن باقٍ يقومه.

ولذلك فإن الإعجاز ليس حدثًا ساكنًا في الماضي، بل حضورٌ متجدد. كلما حاولت البشرية أن تصنع للإنسان معنىً بغير الله، جاء القرآن ليكشف فقر ذلك المعنى. وكلما حاولت الفلسفات أن تفسر الإنسان بعيدًا عن الغيب، جاء القرآن ليعيد إليه بعده الأخروي. وكلما حاولت الحضارة أن تجعل القوة معيارًا، جاء القرآن ليقيم العدل والتقوى. وكلما حاولت اللغة أن تزين الباطل، جاء القرآن ببيانه غير ذي العوج.

وهذا وجهٌ آخر من وجوه الحجة: أن القرآن لا يكتفي بإثبات أنه من عند الله، بل يظل يثبت أن الإنسان لا يستغني عنه. فكل محاولة لبناء الإنسان بعيدًا عن الوحي تترك فيه فراغًا، أو عوجًا، أو قلقًا، أو طغيانًا. أما القرآن فيأتي إلى الأصل: أنت عبدٌ لله، مخلوقٌ لغاية، مبتلى في الدنيا، عائدٌ إلى ربك، مسؤولٌ عن عملك، محتاجٌ إلى هدى الله. هذه الحقائق البسيطة في ألفاظها هي التي يعجز الإنسان عن تعويضها إذا فقدها.

ومن هنا كان القرآن حجةً لأنه يفسر الإنسان لنفسه تفسيرًا لا يملكه الإنسان وحده. يكشف له أنه ليس جسدًا فقط، ولا عقلًا فقط، ولا رغبةً فقط، ولا منتجًا اقتصاديًا فقط، ولا رقمًا في مجتمع، بل عبدٌ مكرمٌ مسؤولٌ يحمل أمانةً ويمضي إلى لقاء الله. وكل خطابٍ يغفل هذه الحقيقة، مهما لمع، يبقى فيه عوج. والقرآن وحده يردّ الإنسان إلى قامته الحقيقية: لا يؤلّهُه، ولا يهينه؛ لا يطلقه بلا حساب، ولا يسحقه بلا رحمة.

وهذا من الإعجاز في الهداية، لا في اللفظ وحده. فالقرآن يضع الإنسان في موضعه الصحيح، وتلك أصعب مهمةٍ في الوجود؛ لأن الإنسان إما أن يطغى

إذا رأى نفسه كبيرًا بلا عبودية، وإما أن ينهار إذا رأى نفسه صغيرًا بلا تكريم. فجاء القرآن فقال له: أنت عبدٌ لله، وهذا يمنع طغيانك؛ وأنت مكرمٌ عند الله، وهذا يمنع انهيارك؛ وأنت مسؤول، وهذا يمنع عبثك؛ وأنت مرحومٌ إن تبت، وهذا يمنع يأسك.

وهذا البيان لا عوج فيه لأنه يوازن بين الحقائق كلها، ولا يسمح لحقيقة أن تلتهم الأخرى. وهنا يعجز البشر؛ لأنهم إذا شددوا على الحرية أضعوا العبودية، وإذا شددوا على الذنب أضعوا الرجاء، وإذا شددوا على الكرامة أحيانًا أضعفوا المسؤولية، وإذا شددوا على القانون أهملوا الرحمة. أما القرآن فيعطي كل حقيقة قدرها، لأن مصدره هو الله الذي لا يعزب عنه شيء.

ومن هنا نفهم أن الإعجاز والحجة كلاهما في خدمة التقوى. الإعجاز يقول لك: هذا ليس من كلام البشر. والحجة تقول لك: لقد ظهر لك الطريق. والتقوى تقول لك: فاخضع لله. فمن توقف عند الإعجاز ولم يتق، كان كمن وقف أمام باب القصر يصف جماله ولم يدخل. ومن درس الحجة ولم يعمل بها، كان كمن عرف الطريق ثم بقي في مكانه.

ولذلك كان المشهد القرآني الكامل هكذا: الله أنزل قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج، فأقام به الحجة، وأظهر به الإعجاز، وفتح به طريق التقوى. والإنسان بعد ذلك أحد رجلين: رجلٌ رأى البيان فاستضاء، ورجلٌ رأى البيان فاستكبر. والفرق بينهما ليس في قوة الدليل، بل في صدق القلب.

وهنا تظهر قيمة التقوى السابقة واللاحقة. فهناك تقوى تجعل الإنسان يطلب الحق بصدق، فإذا جاءه الدليل قبله. وهناك تقوى تنشأ بعد قبول الدليل، فتزيده

عملاً وخضوعاً. ومن فقد الأولى قد لا ينتفع بالحجة، ومن فقد الثانية قد يقرّ بالحجة ثم لا يسير في مقتضاها. ولهذا كان القرآن يربي القلب ليكون قابلاً للهداية، لا ليكون عالماً بالدليل فقط.

ومن دلائل الحجة القرآنية أن القرآن لا يترك معارضية في دعوى عامة، بل يواجههم بتحدٍ محدد، ثم يكشف ضعف دعواهم. ومع ذلك، فإن أعجب ما في الأمر أن كثيراً من المعاندين لم يختاروا المعارضة النصية الجادة، بل اختاروا الاتهام، والتشويش، والصد، والسخرية، ومحاولة منع السماع. وهذا يكشف أن المشكلة لم تكن في غياب القدرة على الفهم فقط، بل في خوفهم من أثر السماع. كانوا يدركون أن القرآن إذا وصل إلى القلوب بلا حواجز، أحدث فيها شيئاً لا يستطيعون السيطرة عليه.

فالبيان القرآني كان حجةً لأنه لا يحتاج إلى وسيطٍ معقد ليصل إلى الفطرة. يسمعه الإنسان المنصف فيجد فيه نبرة الحق: جلاً لا يشبه كلام المتكبرين، ورحمةً لا تشبه استعطاف الضعفاء، وقوةً لا تشبه عنف الطغاة، وصدقاً لا يشبه صناعة الخطباء. إنه كلامٌ يدخل على النفس من بابٍ تعرفه ولا تستطيع وصفه بسهولة؛ باب الفطرة حين تلامس الوحي.

وهذا لا يلغي دور العلم، بل يبين أن للقرآن أثراً سابقاً على التفصيل العلمي؛ أثراً في الفطرة والوجدان. ثم يأتي العلم فيزيد هذا الأثر ضبطاً وعمقاً. ومن هنا كان القرآن يهدي العامي والعالم، لكن هدايته للعالم تزداد إذا تواضع، وهدايته للعامي تصح إذا صدق. فهو ليس مغلقاً على أحد، ولا مبتذلاً لكل عابث.

والعربية في هذا كله تبقى الأصل في تذوق الإعجاز. فمن عرف العربية أدرك من أسرار النظم والاختيار والتناسب ما لا يدركه من يقرأ ترجمة المعنى. لكن من لم يعرفها لا يُحرم من أصل الهداية إذا بلغه المعنى الصحيح؛ لأن القرآن نورٌ للعالمين. غير أن من أراد تمام القرب من المعجزة المتلوة، فطريقه إلى العربية، لا تعصّباً لها، بل حبّاً لكلام الله كما نزل.

وهنا ينبغي أن يقال بوضوح: الترجمة قد تبّلغ المعنى، لكنها لا تنقل القرآن نفسه. إنها جسرٌ إلى الفهم، لا عين الوحي المتلو. ولذلك لا تقوم مقام النص العربي في الصلاة والتعبد والتحدي والإعجاز. وهذا ليس انتقاصاً من اللغات، بل حفظٌ لحقيقة القرآن؛ لأن القرآن ليس معاني مجردة عارية من ألفاظها، بل هو هذا النظم العربي المنزل، اللفظ والمعنى معاً، في وحدةٍ لا تنفصل.

ومن هنا نفهم لماذا كان حفظ القرآن حفظاً للفظه العربي، لا حفظاً لمعانيه العامة فقط. فلو ضاع اللفظ وبقيت المعاني في ترجماتٍ وشروح، لضاع وجهٌ عظيم من الإعجاز والحجة. ولكن الله حفظه كما نزل، لتبقى الأمة في كل عصر قادرةً على الرجوع إلى الأصل، ولتبقى الحجة قائمةً غير مختلطةٍ بضعف البشر في النقل والتعبير.

والعجيب أن هذا الحفظ نفسه حجة. فالقرآن كتابٌ نُلي في المحاريب، وحُفظ في الصدور، وكُتب في المصاحف، ودار على الألسنة في شرق الأرض وغربها، وبقي نصه العربي محوراً واحداً للأمة على اختلاف شعوبها ولغاتها. وهذا من آثار كونه كتاباً أراد الله له أن يكون هادياً للعالمين، لا نصّاً محلياً ينطفئ بانطفاء بيئته الأولى.

ومن هنا يصبح تعلّم العربية والاشتغال بها خدمةً للحجة القرآنية. ليس المقصود أن يتحول كل مسلم إلى عالم لغة، ولكن أن تبقى الأمة في مجموعها حارسةً لهذا اللسان، وأن يبقى في وعي المسلم أن اللغة التي نزل بها القرآن ليست مسألة هامشية. ومن كان قادرًا على الاقتراب منها ثم أعرض كسلًا أو استخفافًا، فقد قوّت على نفسه من مفاتيح القرآن بقدر إعراضه.

ولكن ينبغي أن يكون هذا الاقتراب مؤدبًا بالتقوى؛ لأن دراسة العربية من أجل القرآن تختلف عن دراستها من أجل الزينة الثقافية. الأولى تجعل صاحبها أكثر خشيةً من الكلمة، وأشدّ حذرًا في التفسير، وأعمق توقيرًا للنص. أما الثانية فقد تزيد صاحبها مهارةً ولا تزيده هدى. والفارق بينهما هو القصد: هل أطلب العربية لأفهم كلام الله، أم لأفاخر بمعرفة اللسان؟

ومن هنا يعود الفصل إلى محوره: العربية بين الإعجاز والحجة. فهي من جهة الإعجاز تكشف عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن، ومن جهة الحجة تكشف أن الله خاطب الناس ببيانٍ يمكن أن يفهم وأن يُتَّبَع. لكن كلا الوجهين لا يكتمل أثره إلا بالتقوى. فمن رأى الإعجاز فليتواضع، ومن قامت عليه الحجة فليستجب.

إنّ القرآن لم يتحدّ العرب ليهينهم، بل ليوظهم؛ لم يكشف عجزهم ليحطمهم، بل ليحررهم من غرور اللسان أمام كلام الله؛ لم يأتهم عربيًّا ليمنحهم راية قومية، بل ليجعلهم أول من يحمل أمانة البيان إلى الناس. فكان عليهم أن ينتقلوا من فخر العربية إلى عبودية القرآن، ومن سلطان البيان البشري إلى الخضوع للبيان الإلهي.

وهذا الدرس باقٍ لكل من يملك شيئاً يظنه قوة: علماً، أو لغةً، أو عقلاً، أو مالاً، أو منصباً. فالقرآن يأتي إلى موضع قوتك ليذكرك بحدك. جاء إلى العرب في لغتهم، فأظهر أن اللغة مهما علت لا تساوي شيئاً أمام كلام الله. ويأتي إلى العالم في علمه، فيريه أن علمه محدود. ويأتي إلى القوي في قوته، فيريه أن القوة أمانة. ويأتي إلى الغني في غناه، فيريه أنه مستخلف. فالحجة القرآنية تخاطب كل إنسان من الباب الذي يغتر به، لترده إلى الله.

ومن هنا كان الإعجاز تربيةً للكبر. فالإنسان يعجب بما يملك، والقرآن يريه أن كل ما يملكه مخلوق محدود. فإذا أعجب بلسانه، جاء القرآن بما يعجز لسانه. وإذا أعجب بعقله، جاء القرآن بغيبٍ لا يحيط به عقله لكنه لا يصادم فطرته. وإذا أعجب بحضارته، جاء القرآن بميزانٍ يكشف عوج حضارته. وإذا أعجب بقوته، جاء القرآن بقصص أممٍ كانت أشد منه قوةً ثم صارت عبرة.

وبهذا المعنى، فإن الحجة القرآنية ليست خطاباً للعرب الأوائل فحسب، بل خطابٌ لكل كبرياء بشري. وما العربية إلا الميدان الأول الذي ظهر فيه هذا الدرس: أن الإنسان قد يبلغ الذروة في فنه، ثم يبقى عبداً عاجزاً أمام كلام الله.

وهنا تظهر عظمة قوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ مرةً أخرى؛ لأن الإعجاز لو كان في كلامٍ لا يهدي، لكان عجباً لا رحمة. والحجة لو كانت في خطابٍ لا يستقيم، لكانت عبثاً لا نوراً. أما القرآن فمعجزٌ وهو هادٍ، وحجةٌ وهو رحمة، ومستقيمٌ وهو جميل، وعربيٌّ وهو للعالمين. وهذه الوحدة هي التي تجعله فوق كل تصنيفٍ بشري.

فلا تقل: هو كتاب بلاغة فقط، فتظلمه. ولا تقل: هو كتاب تشريع فقط، فتضيّق سعتَه. ولا تقل: هو كتاب مواضع فقط، فتغفل نظامه. ولا تقل: هو كتاب عقيدة فقط، فتفصل العقيدة عن الحياة. بل قل: هو قرآن؛ كتاب الله المتلو، العربي غير ذي العوج، الذي جمع البيان والحجة والإعجاز والهداية، ليصنع من الإنسان كائنًا متقيًا.

ومن هنا فإن أخصب ما يمكن أن نخرج به من هذا الفصل هو أن إعجاز القرآن ليس غايةً تقف عند إثبات المصدر، بل بدايةً لطريق العبودية. فإذا ثبت لك أنه من عند الله، فقد وجب أن تسأل: ماذا يريد الله مني؟ وإذا رأيت أنه لا عوج فيه، فقد وجب أن تعرض عليه عوجك. وإذا عرفت أنه عربي، فقد وجب أن تحترم لسانه. وإذا علمت أن غايته التقوى، فقد وجب أن تجعل فهمك له خادمًا لهذه الغاية.

وهكذا تتحول العربية من مادة درسٍ إلى باب حجة، ويتحول الإعجاز من قضية كلامية إلى يقظة قلبية، وتتحول الحجة من برهانٍ خارجي إلى مسؤولية داخلية. فالقرآن لا يتركك بعد أن يقنعك، بل يقودك. لا يقول لك فقط: اعترف أنني من عند الله، بل يقول لك: اتبع ما أنزل الله.

وهذا هو الفرق بين معرفةٍ تنتهي عند التصديق، ومعرفةٍ تنقلب إلى تقوى. والقرآن لا يريد التصديق البارد وحده، بل يريد التصديق الذي يتحول إلى إسلام الوجه لله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والعدل، والرحمة، والصبر، والجهاد في سبيل الحق، وإصلاح النفس، وعمارة الحياة بميزان الله.

ومن هنا نصل إلى خلاصة الفصل: لقد جاءت العربية في القرآن مجالاً للإعجاز ومجالاً للحجة؛ أعجزت أهل اللسان، وأقامت عليهم البيان، ثم بقيت أصلاً محفوظاً لهداية العالمين. لكن الإعجاز والحجة كلاهما يتجهان إلى الغاية نفسها: **(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**. فمن رأى عظمة القرآن ولم تزده تقوى، فقد رأى البرق ولم يمش في ضوئه. ومن فهم الحجة ولم يخضع، فقد حمل على نفسه شاهداً أعظم. ومن دخل إلى العربية القرآنية بقلب متواضع، وجد أن الحروف التي يعرفها تتحول في الوحي إلى مفاتيح للغيب، ومصابيح للطريق، ونداءات توقظ الإنسان من نومه الطويل.

وفي الفصل القادم ننتقل من ميدان الإعجاز والحجة إلى ميدان الأثر الداخلي: **من اللفظ إلى القلب؛ رحلة المعنى القرآني**، لنرى كيف تدخل الكلمة القرآنية من السمع، ثم توقظ الفهم، ثم تحرك القلب، ثم تنشئ الخشية، ثم تظهر في السلوك، حتى تصير العربية القرآنية طريقاً حياً من الحرف إلى التقوى.

الفصل الثامن

مِنَ اللَّفْظِ إِلَى الْقَلْبِ؛ رِحْلَةُ الْمَعْنَى الْقُرْآنِيَّةِ

ليست الكلمة القرآنية صوتاً يمرّ على السمع ثم ينتهي، ولا عبارة تُدرك بالعقل ثم تُحفظ في الذاكرة، ولا معنى يُضاف إلى معلومات الإنسان كما تضاف مسألة إلى مسائل العلم؛ بل هي، إذا تلقاها القلب على وجهها، رحلة كاملة تبدأ من اللفظ ولا تنتهي إلا عند السلوك، تمرّ بالسمع، ثم الفهم، ثم الوجدان، ثم الإرادة، ثم العمل، حتى تصير الآية أثراً حياً في الإنسان، لا مجرد نصٍّ قائم خارجه.

وهذا من أسرار قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ فإن التقوى لا تنشأ بمجرد وجود النص، ولا بمجرد جمال اللفظ، ولا بمجرد صحة المعنى، بل تنشأ حين يتحرك المعنى في الإنسان حركةً صحيحة: يسمعه، يفهمه، فيوقن به، فينخلع له قلبه، فتنهض إرادته، فيظهر أثره في عمله. فالقرآن لا يريد أن يبقى في المصحف فقط، ولا في اللسان فقط، ولا في العقل فقط، بل يريد أن يصل إلى موضع القرار في الإنسان.

ومن هنا فإن رحلة المعنى القرآني ليست رحلة لغوية فقط، بل رحلة تكوينية. اللفظ القرآني يفتح الباب، والعربية تضبط الفهم، ونفي العوج يمنح الطريق استقامته، ثم يأتي القلب ليكون موضع الأثر. فإذا تعطلت مرحلة من هذه المراحل، نقص الانتفاع: قد يسمع الإنسان ولا يفهم، وقد يفهم ولا يخشع، وقد

يخشع لحظةً ولا يعزم، وقد يعزم ثم لا يعمل، وقد يعمل ظاهرًا ولا يخلص باطنًا. والقرآن يريد من هذه الرحلة أن تكتمل.

وأول الطريق هو السمع. وليس السمع هنا مجرد وصول الصوت إلى الأذن، بل الإصغاء الذي يمنح الكلمة حقها من الحضور. ولذلك عظم القرآن شأن الاستماع والإنصات، لأن القلب لا يفتح أبوابه لكلامٍ لم يمنحه صاحبه سمعًا صادقًا. قد تمرّ الآية على الإنسان وهو مشغول، فتطرق أذنه ولا تدخل قلبه؛ وقد يسمعها في لحظة صفاء، فإذا بها تفتح فيه بابًا ظل مغلقًا سنين.

فالسمع في القرآن ليس حاسةً فقط، بل موقف. ولهذا ذمّ الله أقوامًا لهم آذان ولكنهم لا يسمعون سماع قبولٍ واعتبار. السمع الحقيقي أن تضع نفسك تحت الخطاب، لا أن تجعله صوتًا في الخلفية؛ أن تستقبل الآية كأنها تعنيك، لا كأنها مادةٌ تُقال لغيرك؛ أن تسمع وأنت مستعد لأن تُغيّر، لا أن تسمع وأنت مصرّ على أن تبقى كما أنت.

ومن هنا كانت التلاوة بابًا عظيمًا من أبواب التربية؛ لأن القرآن حين يُتلى لا يقدم المعنى في صورة ذهنية مجردة، بل يأتي محمولًا على إيقاعه، وفواصله، وتدفعه، ووقعه في النفس. فاللفظ القرآني ليس حاملًا محايدًا للمعنى، بل هو جزءٌ من طريقة وصول المعنى. هناك فرق بين أن تعرف مضمون الآية معرفةً ذهنية، وأن تسمع الآية كما نزلت، بلفظها العربي، ونظمها، وإيقاعها، وجلالها؛ فالمعنى في القرآن لا يأتي عاريًا من هيبة اللفظ.

وهذا لا يعني أن الأثر القرآني صوتيٌّ فقط، بل يعني أن الصوت والمعنى في القرآن متعانقان. الإيقاع ليس طربًا منفصلًا، بل خادمٌ للهداية. والفاصلة ليست

زينةً لفظية، بل جزءٌ من بناء التأثير. والنظم ليس هندسةً جماليةً مجردة، بل طريقٌ إلى القلب. ولذلك قد تهتز النفس بأية قبل أن تستوفي كل دقائق تفسيرها، لأنها أحست بجلال الخطاب، ثم يأتي العلم فيكشف لها من المعنى ما يزيد ذلك الأثر رسوخًا.

بعد السمع تأتي مرحلة **الفهم**. والفهم هنا هو انتقال اللفظ من كونه صوتًا إلى كونه معنى حاضرًا في الوعي. ومن أجل هذا كان القرآن عربيًّا؛ لأن اللسان هو الباب الأول إلى إدراك المراد. وليس الفهم في القرآن مجرد شرح مفردات، بل إدراك علاقة الكلمة بسياقها، والآية بسورتها، والأمر بمقصده، والخبر بما يريد أن يربيه في القلب.

فقد يعرف الإنسان معنى المفردة، ثم يخطئ روح الآية؛ لأن القرآن لا يُقرأ كقائمة ألفاظ، بل كنظم متصل. الكلمة القرآنية جزءٌ من بناء، والآية حلقةٌ في سياق، والسورة ذات مناخٍ ومقصدٍ وحركة، والقرآن كله يفسر بعضه بعضًا. ولذلك كان الفهم القرآني العميق يحتاج إلى العربية، والسياق، ومقاصد الوحي، وتعظيم المتكلم سبحانه، وطلب الهداية لا مجرد طلب الغرابة.

والفهم الصحيح له وظيفة عظيمة: أنه يمنع القلب من التعلق بأثرٍ مبهم. فالإنسان قد يتأثر بالقرآن إجمالاً، لكن أثره يزداد حين يعرف ما الذي يطلبه منه الخطاب تحديدًا. إذا فهم أن الآية تنهاه عن عوجٍ معين في اللسان، بدأ يحرس لسانه. وإذا فهم أنها تكشف مرضًا في القلب، بدأ يفتش داخله. وإذا فهم أنها تربيته على الصبر، نظر إلى ابتلائه بنورٍ جديد. وإذا فهم أنها تذكره بالآخرة، أعاد ترتيب دنياه.

ومن هنا كان الفهم بوابة المسؤولية. فالإنسان قبل الفهم قد يكون في عذرٍ ما، أما بعد الفهم فقد صار أمام التكليف. ولذلك كانت العربية في القرآن طريقاً إلى التقوى؛ لأنها تجعل المعنى قابلاً للفهم، والفهم يجعل المسؤولية قائمة، والمسؤولية توظف التقوى في القلب الحي.

لكن الفهم وحده لا يكفي. فكثيرٌ من الناس يفهمون ولا يتحركون. يعرفون الحق ولا يخضعون له. يدركون المعنى ولا يسمحون له أن ينزل من العقل إلى القلب. وهنا تأتي المرحلة الثالثة: **الانفعال الإيماني بالمعنى**، أو انتقال المعرفة من الذهن إلى الوجدان.

وهذا الانتقال من أعظم أسرار التلقي. قد يعرف الإنسان أن الدنيا فانية، لكنه يعيش كأنها باقية. وقد يعرف أن الله مطلعٌ عليه، لكنه يغفل في الخلوة. وقد يعرف أن الموت قريب، لكنه يؤجل التوبة. فما الذي ينقصه؟ ينقصه أن تتحول المعرفة إلى حضور، وأن يصير المعنى حقيقةً ضاغطةً على القلب، لا معلومةً راقدةً في الذهن.

والقرآن يفعل ذلك بتكرارٍ عجيب، وبطرائق متعددة؛ يذكرّك بالموت، ثم يريك مشاهد القيامة، ثم يقصّ عليك مصائر الأمم، ثم يذكر نعيم الجنة، ثم يذكر عذاب النار، ثم يضعك أمام علم الله، ثم يناديك: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)**. إنه لا يكتفي بأن يخبرك مرةً واحدة، بل يطوف حول قلبك من جهاتٍ كثيرة حتى يستيقظ.

ولهذا كان القرآن مثاني؛ تعود فيه المعاني الكبرى بصورٍ متعددة، لا عجزاً عن التنويع، بل رحمةً بالقلب. فالقلب لا يستيقظ دائماً من النداء الأول. قد

يحتاج إلى وعدٍ بعد وعيد، وإلى قصةٍ بعد حكم، وإلى مثلٍ بعد خبر، وإلى صورةٍ بعد تقرير. والقرآن يربي الإنسان بهذا التعدد المتناغم، حتى لا يبقى المعنى بعيداً عنه.

ثم تأتي المرحلة الرابعة: **الخشية**. وهي ليست مجرد خوف، بل خوف قائم على معرفة وتعظيم. فإذا بلغ المعنى موضع الخشية، بدأ القلب يستعد للتغيير. فالإنسان لا يترك محبوباته المحرمة بمجرد معرفته بأنها محرمة، إلا إذا قام في قلبه تعظيمٌ لمن حرّمها، وخوفٌ من عاقبة مخالفته، ورجاءٌ فيما عنده. فالخشية هي الحرارة الداخلية التي تجعل الفهم حياً.

ومن هنا نفهم لماذا كان أهل القرآن الحقيقيون ليسوا أصحاب الألسنة فقط، بل أصحاب القلوب التي ترتجف لكلام الله. قال تعالى في وصف المؤمنين: **(إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)**، وقال: **(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)**. فهذا هو أثر القرآن حين يصل: قشعريرة ليست رعدةً جسديةً عابرة، بل علامةٌ على أن الخطاب مسّ موضع الخشية، ثم لينٌ ليس ضعفاً، بل انقياداً لله.

والخشية إذا صحت، ولدت الإرادة. فالقرآن لا يريد قلباً يتأثر ثم يظل ساكناً، بل يريد إرادةً تنهض. لذلك تأتي الآية فتقول للمؤمن: قم، أنفك، اصبر، اتق، اعدل، تب، جاهد، اذكر، اشكر، اعف، أصلح. فالمعنى القرآني لا يبقى في منطقة التأمل فقط، بل يطلب من الإنسان فعلاً. ومن هنا كان القرآن كتاب حركةٍ داخلية وخارجية؛ يحرك القلب ثم يحرك الجوارح.

وهذا هو موضع الفرق بين التأثير العابر والتحول الحقيقي. قد يبكي الإنسان عند سماع آية، ثم إذا انتهى المجلس عاد كما كان. هذا أثر لم يكتمل. أما التحول الحقيقي فهو أن تترك الآية أثراً في القرار: معصية تُترك، حق يُؤدى، مظلمة تُرد، عادة تُراجع، نية تُصحح، علاقة تُطهر، طريق يُبدّل. القرآن لا يقيس أثره بعدد الدموع فقط، بل بما صنعته هذه الدموع في مسار الإنسان.

ثم تأتي المرحلة الأخيرة في رحلة المعنى: **العمل**. وهنا يظهر صدق التلقي. فالعمل هو برهان أن المعنى وصل. ليس كل من قال "فهمت" قد فهم بالمعنى القرآني الكامل؛ لأن الفهم الذي لا يحمل صاحبه على شيء من الاستجابة يبقى ناقصاً. ولهذا كان القرآن يقرن الإيمان بالعمل الصالح، لأن الإيمان ليس صورة ذهنية فقط، بل حقيقة تنعكس على الجوارح والاختيارات.

والعمل بالقرآن ليس محصوراً في العبادات الظاهرة، مع عظمتها وضرورتها، بل يشمل كل ما يصححه القرآن في الإنسان: كيف ينظر، وكيف يتكلم، وكيف يخاصم، وكيف يرضى، وكيف يغضب، وكيف يملك، وكيف يعطي، وكيف يصبر، وكيف يفرح، وكيف يحزن، وكيف يحكم على الأشياء، وكيف يزن الدنيا والآخرة. إن القرآن يريد أن ينتقل من صفحة المصحف إلى صفحة الحياة.

ومن هنا تكون رحلة المعنى القرآني رحلةً من **الحرف إلى المصير**. تبدأ بلفظ يتلى، ثم معنى يُفهم، ثم نور يوقظ، ثم خشية تتحرك، ثم إرادة تنهض، ثم عمل يشهد، ثم مآل يرجى عند الله. وهذا هو السر في أن القرآن ليس كتاب قراءة فحسب، بل كتاب تكوين. يكون إنساناً جديداً كلما صدق الإنسان في تلقيه.

والعربية في هذه الرحلة هي الباب الأول إلى صفاء المعنى. فإذا ضعف الفهم اللغوي، تشوش الانتقال من اللفظ إلى الفهم. وإذا تشوش الفهم، ضعف أثر القلب. وإذا ضعف أثر القلب، ضعفت الإرادة. ولذلك كانت صيانة العربية القرآنية صيانةً لأول مرحلة من مراحل التقوى. ليست المسألة ترفاً علمياً، بل حمايةً لسلسلة الأثر كلها.

لكن العجيب أن القرآن، مع كونه عربياً، لا يجعل الرحلة عقليةً نخبويةً معقدة. إنه يخاطب الفطرة بلغةً مبينة. قد لا يعرف العامي دقائق الإعراب، لكنه إذا سمع: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، فهم أصل المسؤولية. وإذا سمع: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، وجد باب الطمأنينة. وإذا سمع: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، أدرك عدل الله. وإذا سمع: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، تنفس رجاءه. فالقرآن قريبٌ في هدايته، عميقٌ في دلالاته.

وهذا من كمال البيان: أن يصل إلى العامة دون أن يفقد أعماقه عند الخاصة. فاللغة البشرية إذا سعت إلى العمق قد تغمض، وإذا سعت إلى السهولة قد تفرغ. أما القرآن فيجمع بين الوضوح والامتلاء، بين القرب والعلو، بين المعنى الذي يفهمه القلب السليم لأول وهلة، والمعنى الذي يظل العالم يكتشف طبقاته زمناً طويلاً.

ومن هنا فإن رحلة المعنى القرآني تختلف باختلاف المتلقين، لا لأن القرآن متغير، بل لأن القلوب تتفاوت في الصفاء والاستعداد والعلم والتقوى. الآية واحدة، لكن قلباً يمرّ بها مروراً سريعاً، وقلباً تقيم فيه مقاماً طويلاً. قد يسمعها إنسانٌ فتكون عليه حجة، ويسمعها آخر فتكون له فتحاً. وقد يقرأها المرء في

شبابه فلا تتجاوز ظاهرها، ثم يقرأها بعد ابتلاء أو توبة أو انكسار، فإذا بها تفتح له باباً لم يكن يراها.

فالقرآن ثابت، لكن الإنسان يتحرك، وكلما تحرك الإنسان في طريق الله، وجد القرآن يجيبه من مواضع أعمق. وهذا لا يعني أن المعنى يُخترع بلا ضابط، بل أن القلب يصبح أقدر على تذوق ما كان موجوداً في النص من قبل. كالعين الضعيفة حين تقوى؛ لا تخلق النور، لكنها تراه أكثر.

ولهذا كان من أعظم آداب القرآن أن لا يظن الإنسان أنه استنفد الآية. قد يفهم معناها العام، وقد يعرف تفسيرها الظاهر، وقد يدرك وجهاً من بلاغتها، لكن القرآن أوسع من إحاطة فرد، وأطول نفساً من عمر قارئ، وأعمق من أن يستنفده زمان. ومع ذلك، فإن اتساعه ليس فوضى؛ إنه اتساعٌ داخل الاستقامة، وعمقٌ غير ذي عوج.

وهنا يعود وصف **(غَيْرِ ذِي عَوْجٍ)** ليحرس رحلة المعنى. فليست كل انفعالية وجدانية بالقرآن صحيحة إذا لم تضبطها دلالة القرآن. وليست كل خاطرة ترد على القلب معنىً مراداً. وليست كل دهشة دليلاً على فتح رباني. القرآن يفتح أبواب التدبير، لكنه لا يرضى بالعبث. والقلوب قد تصفو فتفهم، وقد تميل فتتخيل. لذلك لا بد أن تبقى الرحلة من اللفظ إلى القلب محروسةً بالعلم، كما تبقى محروسةً بالتقوى.

فالعلم يمنعك من أن تقول على الله ما لا تعلم، والتقوى تمنعك من أن تستعمل العلم في غير وجهه. وإذا اجتمع العلم والتقوى، صارت الرحلة آمنة: تبدأ من

اللفظ المنزل، تمرّ بالفهم المنضبط، تنزل إلى القلب الخاشع، ثم تظهر في العمل الصالح.

ومن أخطر الآفات أن يقف الإنسان عند مرحلة واحدة ويظن أنه بلغ المقصود. فمن الناس من يقف عند الصوت، فيحسن التلاوة ولا يتجاوزها إلى الفهم. ومنهم من يقف عند الفهم، فيشرح ولا يخشع. ومنهم من يقف عند الوجد، فيتأثر ولا يعمل. ومنهم من يعمل عادةً دون أن يجدد الفهم والخشية. والقرآن يريد اكتمال السلسلة: تلاوة، فهم، تدبر، خشية، عمل.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يتلقون القرآن تلقى بناء، لا تلقى استهلاك. لم يكن القرآن عندهم مادةً للفراغ، بل منهج حياة؛ إذا نزلت الآية تحركت في واقعهم، وإذا سمعوا الأمر نظروا كيف يمتثلون، وإذا سمعوا النهي نظروا ماذا يتركون. ولذلك صنع القرآن منهم أمة؛ لأن المعنى لم يبق في مجال التلاوة، بل صار قوةً تاريخيةً وأخلاقيةً وحضارية.

وهذا هو السؤال الذي ينبغي أن يواجهه كل قارئ: أين تتوقف رحلة الآية عندك؟ هل تقف في أذنك؟ هل تقف في ذهنك؟ هل تصل إلى قلبك؟ هل تتحول إلى إرادة؟ هل تظهر في عملك؟ فإن عرفت موضع التوقف، عرفت موضع المرض. فقد لا تكون المشكلة في قلة سماعك، بل في ضعف إنصاتك. وقد لا تكون في ضعف فهمك، بل في غياب خضوعك. وقد لا تكون في قلة تأثرك، بل في عجزك عن تحويل التأثير إلى قرار.

والقرآن يعالج هذا كله؛ لكنه يحتاج إلى صدقٍ وصبر. يحتاج أن تعود إليه لا طلبًا للانبهار فقط، بل طلبًا للإصلاح. أن تدخل على الآية وأنت تقول: يا

رب، ماذا تريد أن تغيّر فيّ بهذه الآية؟ أن لا تجعل نفسك متفرجاً على الجمال، بل مريضاً بين يدي الشفاء، وسائراً بين يدي النور، وعبداً بين يدي كلام مولاه.

ومن هنا نرى أن التقوى هي اكتمال رحلة المعنى. فإذا بلغ المعنى القلب فأحدث وقايةً من المعصية، وحذراً من الغفلة، وتعظيماً لله، واستقامةً في الاختيار، فقد وصل إلى غايته. وإذا لم يبلغ ذلك، فليست المشكلة في القرآن، بل في الطريق بين اللفظ والقلب؛ هناك حاجزٌ ما: غفلة، أو هوى، أو كبر، أو عادة، أو ضعف علم، أو تعلق بالدنيا، أو ذنبٌ أظلم موضع التلقي.

ولهذا كان من فقه التلاوة أن يهيئ الإنسان قلبه قبل القراءة. فالقرآن عظيم، لكن القلب المشغول لا يستقبل العظمة كما ينبغي. يحتاج القارئ إلى أن يخرج من ضجيج نفسه، وأن يستحضر أنه يقرأ كلام الله، وأن يطلب الهداية، وأن يتعوذ من الشيطان، وأن لا يستعجل، وأن يسمح للآية أن تعمل فيه. فليس المقصود أن يقطع المسافة في المصحف فقط، بل أن يقطع المسافة من الغفلة إلى الذكر.

والقرآن نفسه يعلمنا أن القلوب قد تقسو، وأن عليها أقبالاً، وأن الذكر قد ينفع من يخشى، وأن من أعرض عن الذكر ضاق عيشه. وهذا يعني أن رحلة المعنى يمكن أن تُعاق. ليست القضية آلية: تسمع فتنتقي بالضرورة. بل هناك ابتلاء في التلقي. قد تقاوم النفس المعنى لأنها تعلم أنه سيغيّرها. قد تهرب من الآية لأنها تكشف موضعاً لا تريد رؤيته. قد تستبدل التدبر بالانشغال الصوتي أو الجدلي حتى لا تواجه حقيقة الخطاب.

ومن هنا كان القرآن لا يطلب منا الإنصات للآيات فقط، بل الإنصات لأنفسنا تحت الآيات. أن نسأل: لماذا لم أتأثر؟ لماذا مرّت الآية عليّ ولم توقظني؟ لماذا أفهم ولا أعمل؟ لماذا أتذوق الجمال ولا أتغير؟ هذه الأسئلة ليست يأساً، بل بداية صدق؛ لأن من رأى حجاب قلبه بدأ يطلب رفعه.

والدعاء هنا مفتاح. فالقرآن كلام الله، والهداية بيد الله، والقلب بين يدي الله، والفهم نورٌ يؤتيه الله من شاء. ولذلك لا يدخل العبد إلى القرآن مستغنياً بذكائه أو عربيته أو ثقافته، بل يدخل فقيراً: يا رب، افتح عليّ، علّمني، اهدني، اجعل القرآن حجةً لي لا عليّ. ومن دخل بهذا الفقر وجد في القرآن ما لا يجده المتكبر ولو ملك أدوات كثيرة.

وهذا معنى مهم في رحلة المعنى: ليست رحلةً من اللفظ إلى القلب بقدره الإنسان وحده، بل بتوفيق الله. نعم، يبذل الإنسان أسباب الفهم والتدبر والعمل، لكنه يعلم أن الهداية فضل. ولذلك لا يغتر إذا فُتح له، ولا يقنط إذا وجد قسوة، بل يداوي القسوة بالرجوع، ويطلب الفتح من الفتح العليم.

ومن أعجب ما في القرآن أنه يعيد تشكيل الحس الداخلي للإنسان مع كثرة التلاوة الصادقة. في البداية قد يحتاج القلب إلى جهدٍ ليتأثر، ثم مع الملازمة تبدأ الآيات في بناء ذاكرةٍ إيمانيةٍ داخله. فإذا وقع في فتنة، حضرت آية. وإذا همّ بمعصية، سمع في داخله نهياً. وإذا حزن، جاءه وعد. وإذا ظلم، ذكر الميزان. وإذا أنعم الله عليه، تذكر الشكر. وإذا اقترب من اليأس، فتح له القرآن باب الرجاء. عندها لا يبقى القرآن خارجاً عنه، بل يصير جزءاً من بصيرته.

وهذا هو معنى أن القرآن يصوغ الإنسان. لا يصوغه دفعةً واحدة، بل يعيد ترتيب داخله بالمداومة: معانيه تتحول إلى موازين، وأوامره إلى حدود، وقصصه إلى عبر، وأسماءه إلى تعظيم، وآخرته إلى حضور، ووعوده إلى أمل، ووعيده إلى حذر. فإذا تكلم الإنسان تكلم وقد مرّت الكلمة على ميزان القرآن، وإذا اختار اختار وقد لاح له ضوء الآخرة، وإذا خاصم خاصم وفي قلبه خوف من الظلم.

وحين يبلغ القرآن هذا المقام في الإنسان، تكون رحلة المعنى قد أثمرت. لم يعد اللفظ صوتًا فقط، ولا المعنى فكرةً فقط، بل صار وعيًا مقيمًا. وهنا تظهر التقوى في صورتها الناضجة: ليست توترًا عابرًا، بل يقظة مستقرة؛ ليست خوفًا موسميًا، بل ميزانًا دائمًا؛ ليست انفعاليًا عند التلاوة فقط، بل حضورًا في السوق والبيت والعمل والخصومة والخلوة.

ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا كان القرآن يُتلى في الصلاة؛ لأن الصلاة تجمع رحلة المعنى كلها في عبادة واحدة. اللسان يتلو، والأذن تسمع، والعقل يفهم، والقلب يخشع، والجسد يركع ويسجد. كأن الصلاة صورةً مكثفة للطريقة التي ينبغي أن يدخل بها القرآن إلى الإنسان: ليس صوتًا بلا جسد، ولا معنى بلا خضوع، ولا خشية بلا هيئة، بل عبودية كاملة.

والسجود بعد التلاوة، في مواضعه، رمزٌ عظيم لهذا الانتقال: تسمع الآية، فينتهي المعنى بجسدك إلى الأرض خضوعًا لله. وكأن القرآن يقول لك إن المعنى إذا بلغ كماله لم يبق فكرةً في الرأس، بل أنزل الإنسان كله إلى مقام العبودية.

وهذا هو الفارق بين من يقرأ القرآن ليستخرج منه مادةً للكلام، ومن يقرأه ليخرجه القرآن من عوجه. الأول يخرج بعبارات، والثاني يخرج بقلبٍ جديد. الأول يملك أن يصف الطريق، والثاني يبدأ السير. الأول قد يدهش الناس، والثاني يخاف الله. ولا مانع أن يجتمع الجمال والخشية، بل هذا هو الأكمل، لكن الخطر أن يبقى الجمال منفصلاً عن التقوى.

ومن هنا، فإن كل كتابة عن القرآن ينبغي أن تخضع لهذا الميزان: هل تزيد القارئ قرباً من القرآن أم تشغله بالكاتب؟ هل تجعل الآية أكبر في قلبه أم تجعل العبارة أكبر من الآية؟ هل تفتح له باب العمل أم تمنحه متعةً فكريةً فقط؟ إن البيان البشري حين يتكلم عن القرآن ينبغي أن يكون خادماً للبيان الإلهي، لا مزاحماً له. وأشرف الكتابة في القرآن ما جعلت القارئ يعود إلى الآية نفسها بتعظيم أكبر.

ولذلك فإن رحلة المعنى من اللفظ إلى القلب يجب أن تبقى متصلةً بالأصل: القرآن نفسه. قد تساعد التفاسير، وتفتح التأملات، وتضيء اللغة، وتعين الكتب، لكن الأصل هو أن يقف العبد أمام كلام الله. لا ينبغي أن تتحول الوسائط إلى حجاب. كل شرح صحيح ينبغي أن يقربك من النص، لا أن يغنيك عنه. وكل تأمل رفيع ينبغي أن يجعلك أشد شوقاً للتلاوة، لا أن تكتفي به بدل القرآن.

وهذا من معنى أن القرآن قرآنًا: يُتلى ويُعاد، لا يُستبدل به كلامٌ آخر. فهو ليس موضوعاً نكتب حوله ثم ننصرف عنه، بل نبغّ نعود إليه. وكلما عدنا إليه

وجدنا أن ما كتبناه عنه قليلٌ أمام ما فيه، وأن ما فهمناه منه رحمةٌ من رحمت الله، وأن طريقه أطول وأجمل وأرهف من أن يحيط به عقلٌ أو قلم.

ومن هنا نعود إلى الآية الجامعة: **(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**. إنها ترسم رحلة المعنى كاملة:

قرآنًا: لأنه يُتلى ويتكرر ويحضر.

عربيًّا: لأنه يُفهم بلسانٍ مبين.

غير ذي عوج: لأنه طريقٌ مأمونٌ لا يضل.

لعلهم يتقون: لأن الغاية أن يتحول البيان إلى وقايةٍ في القلب والعمل.

فليست التقوى قفزةً مفاجئةً من غير مقدمات، بل ثمرة رحلة هادية؛ وليست العربية مفخرةً منفصلةً عن هذه الرحلة، بل بابها الأول؛ وليست الاستقامة وصفًا نظريًّا، بل ضمانا الطريق من اللفظ إلى المصير.

وحين يتأمل الإنسان هذه الرحلة، يعرف لماذا كان القرآن شفاءً وهدىً ورحمة. لأنه لا يعالج سطح الإنسان فقط، بل يصل إلى جذور عوجه؛ إلى طريقة سماعه، وطريقة فهمه، وطريقة شعوره، وطريقة اختياره، وطريقة عمله. إنه يربيّه من الداخل إلى الخارج، ومن الكلمة إلى السلوك، ومن الوعي إلى المصير.

ولهذا، فإن من أراد أن ينتفع بالقرآن فليتعاهد الطريق كله: ليحسن السماع، وليطلب الفهم، وليفتح القلب، وليصدق في الخشية، وليحوّل التأثير إلى قرار، وليجعل العمل شاهدًا على التلقي. فإذا فعل ذلك، وجد أن الآية لا تنتهي عند

آخر حرفٍ منها، بل تبدأ هناك؛ تبدأ في القلب، وفي الحياة، وفي الطريق إلى الله.

وفي الفصل القادم ننتقل إلى الوجه المقابل لهذه الحقيقة: إذا كان القرآن عريباً غير ذي عوج، فما الذي يحدث حين تعوج اللغة البشرية؟ كيف يفسد الوعي حين تفسد الأسماء؟ وكيف يصير التلاعب بالمصطلحات باباً من أبواب الفتنة؟ ولماذا يحتاج الإنسان في كل عصر إلى القرآن ليحرس لغته من الكذب، ووعيه من التضليل، وقلبه من المسالك الملتوية؟

الفصل التاسع

عَوَجُ اللُّغَةِ وَعَوَجُ الْإِنْسَانِ

إذا كان القرآن قد وصف نفسه بأنه (عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوَجٍ)، فإن هذا الوصف لا يضيء لنا استقامة القرآن وحدها، بل يكشف في الوقت نفسه خطر العوج حين يصيب اللغة والإنسان معاً؛ لأن اللغة ليست شيئاً منفصلاً عن الوعي، ولا الوعي شيئاً منفصلاً عن السلوك، ولا السلوك شيئاً منفصلاً عن المصير. فإذا اعوجبت الكلمة، اعوج الفهم، وإذا اعوج الفهم، اعوج الاختيار، وإذا اعوج الاختيار، اعوج الطريق، ثم يجد الإنسان نفسه بعيداً عن التقوى وهو يظن أنه ما زال قريباً من المعنى.

ولهذا لم يكن نفي العوج عن القرآن وصفاً جمالياً فقط، بل كان إعلاناً عن طهارة البيان من كل ما يُفسد وظيفة اللغة. فاللغة في أصلها أداة كشف، وسيلة تعارف، طريق إلى تسمية الأشياء بأسمائها، فإذا دخلها الهوى صارت أداة ستر، وإذا استعملها المكر صارت قناعاً، وإذا غلبت عليها الشهوة صارت تزييناً للباطل، وإذا تحكمت فيها القوة صارت وسيلة لإعادة تشكيل وعي الناس على صورة مصالح الأقوياء لا على صورة الحق.

ومن هنا كان عوج اللغة من أخطر أبواب عوج الإنسان؛ لأن الإنسان لا يتحرك في العالم بالأشياء وحدها، بل بالأسماء التي يمنحها للأشياء. فإذا سمّى الظلم عدلاً، سهل عليه أن يمارسه باسم الإنصاف. وإذا سمّى الخيانة حكمة،

سهل عليه أن يتزَيَّن بها باسم العقل. وإذا سَمَّى الجبن سلامة، سهل عليه أن يترك الحق وهو يمدح نفسه بالاتزان. وإذا سَمَّى الهوى حرية، سهل عليه أن يعبد شهوته وهو يظن أنه تحرر. وإذا سَمَّى التوبة ضعفاً، بقي في ذنبه وهو يحسبه صلابة. فالفساد يبدأ أحياناً من الاسم قبل أن يظهر في الفعل.

والقرآن، لأنه غير ذي عوج، يعيد للأسماء طهارتها. لا يسمح للباطل أن يلبس اسم الحق، ولا للهوى أن يتكلم بلسان الفضيلة، ولا للظلم أن يدخل على الناس من باب المصلحة، ولا للفساد أن يتخفّى في زخرف المصطلحات. إنه يضع الأشياء في ميزان الله، لا في ميزان رغبة الإنسان، ويسميها كما هي في حقيقتها، لا كما يريد أصحاب الأهواء أن تُسمّى.

وهذا من أعظم أدوار القرآن في كل عصر: أنه يحرس اللغة من أن تتحول إلى خادمة للعوج. فكل عصر له قاموسه المضلل، وكل حضارة تصنع ألفاظاً تبرر بها ما تحب، وتخفف بها ما تستقبحه الفطرة، وتغطي بها ما تخجل منه النفس إذا سُمّي باسمه الحقيقي. والقرآن يأتي في كل مرة ليخرق هذه الأستار، ويقول للإنسان: لا تتخدع بالاسم إذا فسد المسمّى، ولا بالزخرف إذا عوج الطريق، ولا بالانتشار إذا ضاع الحق، ولا بمديح الناس إذا خالف الأمر حكم الله.

وقد كان القرآن حاسماً في هذا الباب؛ سَمَّى الشرك شركاً، والكفر كفرًا، والظلم ظلمًا، والفساد فسادًا، والفواحش فواحش، والربا ربا، والبغي بغيًا، والغيبة غيبة، والنفاق نفاقًا، والتكبر استكبارًا، والإسراف إسرافًا، ولم يترك هذه المعاني سائبةً تُخففها الألسنة أو تُجملها الأعراف. وفي المقابل سَمَّى

الإيمان إيماناً، والتقوى تقوى، والإحسان إحساناً، والصبر صبراً، والشكر شكرًا، والتوبة توبةً، والصدق صدقًا، والعدل عدلاً، فلم يجعل الفضائل تابعةً لأمرجة الناس، بل ردها إلى ميزان الوحي.

وهذه التسمية القرآنية ليست مجرد عملٍ لغوي، بل عملٌ تربوي. فالإنسان إذا سمع الذنب باسمه الحقيقي انكسر شيءٌ من سلطانه عليه، وإذا سمع الطاعة باسمها الحقيقي استيقظ شيءٌ من شوقه إليها. ولذلك فإن من أخطر حيل الشيطان أن يغيّر الاسم في الداخل قبل أن يجرّ الإنسان إلى الفعل في الخارج؛ فيسمّي المعصية تجربة، والكبر كرامة، والحسد نقدًا، والشماتة نصحاء، والانتقام غيرة، والمرء دفاعًا عن الحق، حتى إذا دخل الإنسان في الذنب لم يشعر بثقله؛ لأنه دخل إليه من باب اسمٍ مخفف.

والقرآن يقطع هذا الطريق؛ لا لأنه يريد أن يقسو في العبارة، بل لأنه يريد أن ينقذ الإنسان من خداع العبارة. فالرحمة ليست دائمًا في تلطيف الاسم، بل قد تكون الرحمة في أن يُسمّى المرض مرضًا حتى يطلب صاحبه الدواء. ولو سُمّي المرض عافيةً، لهلك صاحبه مطمئنًا. وهكذا الذنب؛ إذا غيّر اسمه سكن القلب إليه، وإذا واجهه القرآن باسمه استيقظ الخوف منه.

ومن هنا نفهم أن قوله تعالى: (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) يتضمن أن القرآن لا يجامل العوج في النفس. فهو لا يترك الإنسان يختبئ خلف قاموسٍ يصنعه لنفسه. كم من إنسان يقول: أنا صريح، وهو جارح. ويقول: أنا حازم، وهو قاسٍ. ويقول: أنا عزيز النفس، وهو متكبر. ويقول: أنا واقعي، وهو فاقدٌ لليقين. ويقول: أنا متسامح، وهو مفرط في الحق. ويقول: أنا غيور على الدين، وهو ظالم في

خصومته. والقرآن يأتي ليكشف هذه التبديلات، ويردّ كل معنى إلى وجهه الصحيح.

إن عوج اللغة ليس مشكلةً في اللسان وحده، بل في القلب الذي يريد من اللسان أن يخدم عوجه. فالإنسان لا يزور الأسماء عبثاً؛ يزورها لأنه يريد أن يخفف وخر الضمير، أو يريد أن يمنح باطله شرعية، أو يريد أن يخرج من ثقل التكليف، أو يريد أن يقنع الناس بما لا يستطيع أن يقوله باسمه الصريح. ومن هنا فإن إصلاح اللغة لا يكون بتصحيح الألفاظ فقط، بل بتصحيح المقاصد التي تستعمل الألفاظ.

والقرآن يبدأ من هذا العمق. إنه لا يعلم الإنسان المفردات فحسب، بل يطهر نيته في استعمال المفردات. يعلمه أن الكلمة أمانة، وأن القول عمل، وأن اللسان مسؤول، وأن الإنسان قد يدخل النار بكلمة لا يلقي لها بالاً، وقد يرفع الله بها عبداً إذا صدقت. ولذلك فإن القرآن لا يفصل بين البيان والأخلاق؛ لأن البيان إذا انفصل عن الأخلاق صار أداة خطر.

وقد كان من علامات عظمة القرآن أنه جعل القول نفسه مجالاً للتقوى. قال تعالى: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، والسداد هو إصابة الحق والاستقامة فيه؛ كأن الكلمة ينبغي أن تكون مصوبةً نحو الحق، لا مائلةً مع الهوى. وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، فليست الاستقامة في الصدق وحده، بل في طريقة الأداء أيضاً. وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، فرفع الكلمة من مستوى العادة اليومية إلى مستوى الحساب الأخروي.

وهذا يعني أن اللغة في التصور القرآني ليست منطقةً مباحةً للعبث. ليست الكلمات هواءً يتبدد. كل كلمة لها وزن، وكل تسمية لها أثر، وكل خطاب يصنع شيئاً في العالم: إما أن يقرب من الله أو يبعد، إما أن يكشف الحق أو يحجبه، إما أن ينصر مظلوماً أو يخذله، إما أن يصلح بين الناس أو يفسد، إما أن يداوي قلباً أو يجرحه، إما أن يحمل نوراً أو ينشر دخاناً.

ولهذا كان القرآن عربياً غير ذي عوج؛ لأن اللغة التي أرادها الله للقرآن ينبغي أن تكون مثلاً أعلى للكلمة حين تؤدي وظيفتها كما ينبغي: تكشف، تهدي، تقوم، توقظ، تداوي، تحكم بالحق، تردّ الإنسان إلى ربه. وكل لغة بشرية، وكل خطاب بشري، يقترب من الشرف بقدر ما يقترب من هذه الوظيفة، ويهبط بقدر ما ينفصل عنها.

ومن هنا يمكن أن نقول: إن عوج الإنسان يظهر في لغته قبل أن يظهر في أفعاله أحياناً. فمن راقب ألفاظ الناس رأى خرائط قلوبهم؛ فالذي يكثر من تبرير نفسه غالباً يخشى مواجهة عيبه، والذي يلين في موضع الحق قد يكون خائفاً، والذي يشتد في موضع الرحمة قد يكون قاسياً، والذي يكثر من تجميل الباطل قد يكون أسير هوى، والذي يتهرب من الأسماء الصريحة قد يكون غير مستعد للتوبة. فاللغة مرآة، ولكنها قد تكون مرآة مزيفة إذا تعمد صاحبها أن يصقلها بالكذب.

والقرآن يصنع في المؤمن حساسيةً عالية تجاه الكلمات. لا يعود المؤمن يتعامل مع الألفاظ بخفة؛ يعرف أن الكلمة قد تكون عهداً، أو شهادةً، أو قذفاً، أو غيبةً، أو نصحاً، أو زوراً، أو ذكراً، أو دعاءً، أو توبةً، أو كفرًا. الكلمة

ليست تفصيلاً صغيراً، بل قد تكون مصيراً. ولهذا كانت العربية القرآنية مدرسةً في تهذيب اللسان كما هي مدرسةٌ في تهذيب القلب.

وعندما يبتعد الإنسان عن القرآن، يبدأ عوج اللغة يتسع. لا يعود يستقبح الكلمة المنحرفة، لأنه اعتاد سماعها. ولا يعود يميز بين الحقيقة والدعاية، لأن قاموسه لم يعد محكوماً بميزانٍ أعلى. ولا يعود ينزعج من التلاعب بالمصطلحات، لأنه فقد حساسية البيان. وهنا تنشأ فتنةٌ كبرى: أن يعيش الناس داخل لغةٍ منحرفة ثم يظنون أن وعيهم سليم.

والأمم لا تُهزم بالسيوف وحدها، بل تُهزم حين تُسلب القدرة على تسمية الأشياء كما هي. فإذا صار الظلم مشروعاً، والباطل تقدماً، والتقلت حرية، والذوبان انفتاحاً، والتمسك بالحق جموداً، والغفلة راحةً، والعبودية لله تخلفاً، فقد بدأت الهزيمة من القاموس قبل أن تظهر في الواقع. والقرآن يعيد للأمة قاموسها الرباني، فيعلّمها أن لا تأخذ أسماء الأشياء من المنتصرين في الأرض، بل من رب العالمين.

وهذا من معنى الفرقان. فالفرقان ليس فقط التفريق بين حكمٍ وحكم، بل التفريق بين اسمٍ حق واسمٍ مزيف، بين نورٍ ودخان، بين تجديدٍ وعبث، بين رحمةٍ وتمييع، بين قوةٍ وطغيان، بين عزةٍ وكبر، بين تواضعٍ ومهانة، بين صبرٍ واستسلام، بين حريةٍ واتباع هوى. والقرآن هو الفرقان لأنه يحفظ الوعي من الذوبان في الأسماء المضللة.

ومن هنا فإن المسلم الذي يعيش مع القرآن يصبح أقل قابليةً للخداع اللغوي. لا يكفي أن يسمع لفظاً جذاباً؛ يسأل عن حقيقته. لا يكفي أن تُعرض الفكرة

في ثوب جميل؛ يزنّها بميزان الله. لا يكفيّه أن يكثر الناس من استعمال كلمة ما؛ يسأل: هل هي حق؟ هل تقود إلى تقوى؟ هل تحفظ الفطرة؟ هل توافق الوحي؟ هل تكشف أم تخفي؟ هل تسمي الشيء باسمه أم تهرب من اسمه؟

وهذا لا يعني رفض كل جديد في المصطلحات، ولا الجمود على تعبيرات محددة في كل مجال، بل يعني أن يكون القرآن هو الميزان الأعلى الذي يمنع المصطلح من أن يتحول إلى حصان يدخل به الباطل إلى العقل. فليست المشكلة في أن تتجدد لغة الناس، بل في أن يتجدد العوج داخل اللغة. وليست المشكلة في أن نشرح المعاني بعبارات معاصرة، بل في أن نستبدل المعاني القرآنية بمعانٍ دخيلة ثم نحتفظ بالألفاظ الإسلامية كقشرة شكلية.

وهذا أخطر ما يقع في الخطاب الديني والفكري: أن تبقى الألفاظ قرآنية، لكن المضامين تنقلب. تُذكر الرحمة ويُراد بها إلغاء الحدود بين الحق والباطل. وتُذكر الحكمة ويُراد بها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويُذكر التجديد ويُراد به نقض الثوابت. وتُذكر المقاصد ويُراد بها تعطيل النصوص. وتُذكر الحرية ويُراد بها الخروج من العبودية لله إلى العبودية للهوى. هنا لا يكون العوج في ترك القرآن صراحةً، بل في استعمال ألفاظٍ قريبة من القرآن لمعانٍ بعيدة عن القرآن.

والقرآن غير ذي عوج يفضح هذا النوع من العوج؛ لأنه يربط اللفظ بسياقه، والمعنى بمقصده، والحكم بالتقوى، والرحمة بالحق، والحق بالعدل، والعدل بعبودية الله. لا يسمح بفصل المفاهيم عن جذورها. فليس في القرآن رحمةٌ تهدم الحق، ولا حقٌ يخلو من الرحمة، ولا حريةٌ تلغي العبودية، ولا عقلٌ

يستكبر على الوحي، ولا تجديدٌ ينقض أصل الدين، ولا لغةٌ تنزّين ضد المعنى.

ومن هنا تظهر حاجة الكاتب والمفكر والمتكلم إلى فقه قرآني للغة. ليس المقصود أن يكثر من الاقتباس فقط، بل أن يتعلم من القرآن أمانة التسمية، واستقامة المقصد، ووضوح الحجة، وترك الالتواء. فكم من كتابة جميلة لكنها معوجة؛ تلمع فيها العبارة ويغيب فيها الميزان. وكم من خطاب متدين في ظاهره لكنه يمارس الظلم باسم الغيرة، أو القسوة باسم الحق، أو الفوضى باسم الشجاعة. والقرآن يرفض كل عوج، حتى لو جاء في ثوب قريب.

ولهذا كان المؤمن يحتاج أن يعرض لغته الخاصة على القرآن. لا لغة المقالات والخطب فقط، بل اللغة الداخلية التي يحدث بها نفسه. ماذا يسمى ذنبه؟ ماذا يسمى تقصيره؟ ماذا يسمى ضعفه؟ ماذا يسمى طاعته؟ ماذا يسمى نعم الله عليه؟ ماذا يسمى خصومته؟ ماذا يسمى تأخره عن الواجب؟ هنا تبدأ التقوى. فقد يكون الإنسان مستقيم العبارة أمام الناس، لكنه يستعمل قاموساً مخادعاً بينه وبين نفسه. والقرآن يريد أن يدخل إلى هذا الموضع الخفي.

إن من رحمة الله أن القرآن لا يعالج اللسان وحده، بل يعالج اللسان من منبعه: القلب. فاللسان ينضح بما في القلب، والقلب يتشكل بما يصدقه من معاني. فإذا امتلأ القلب بالقرآن صار اللسان أصدق، وإذا امتلأ بالهوى صار اللسان أقدر على التزييف. ولذلك فإن إصلاح اللغة لا ينفصل عن إصلاح القلب، وإصلاح القلب لا ينفصل عن القرآن.

وقد يظن بعض الناس أن العوج في اللغة قضية ثقافية، لا علاقة لها بالإيمان. لكن القرآن يبيّن أن الكلمة قد تكون إيمانًا أو كفرًا، صدقًا أو زورًا، ذكرًا أو غيبة، شهادة أو بهتانًا. بل إن التوحيد نفسه يبدأ بكلمة، والنفاق يظهر في القول، والتوبة تُعلن بالاستغفار، والدعاء كلمة يرفعها العبد إلى الله، والشهادة كلمة يدخل بها المرء في الإسلام. فكيف تكون اللغة هامشية وهي مدخل لكثير من مصائر الإنسان؟

ومن هنا كان عوج اللغة خطرًا على التوحيد ذاته إذا سمح للإنسان أن يخفف حق الله في الوعي. فحين لا يسمّي العبودية عبودية، ولا الربوبية ربوبية، ولا الشرك شركًا، ولا الطاعة طاعة، ولا المعصية معصية، يبدأ التصور العقدي في الذوبان. وإذا ذاب التصور، ضعفت التقوى. ولذلك حفظ القرآن الألفاظ الكبرى للدين: الله، الرب، الإله، العبادة، الإيمان، الكفر، الشرك، التقوى، الهدى، الضلال، الحق، الباطل؛ لأنها ليست ألفاظًا عادية، بل مفاتيح العالم كما يراه الوحي.

وهذه الألفاظ لا يجوز تفريغها من معناها القرآني. فمن قال “الإيمان” ثم جعله مجرد شعور أخلاقي عام بلا تصديق وانقياد، فقد أعوج اللفظ. ومن قال “العبادة” ثم حصرها في الشعائر دون خضوع القلب والحياة لله، فقد ضيق المعنى. ومن قال “التقوى” ثم جعلها مظهرًا خارجيًا بلا خشية وصدق، فقد أضعف حقيقتها. ومن قال “الحرية” ثم جعلها خروجًا من أمر الله، فقد جعل اللفظ قناعًا للهوى.

والقرآن يعيد هذه الألفاظ إلى مركزها؛ لا يتركها سائبةً في يد الثقافة الغالبة أو المزاج الشخصي. ومن هنا تأتي خطورة قراءة القرآن قراءة لا تعترف بسلطانه على المصطلحات. فالقرآن لا يدخل إلى قاموسنا تابعًا، بل حاكمًا. لا نأخذ الكلمة القرآنية ثم نجعل معناها خاضعًا لرغباتنا، بل نعرض رغباتنا على معناها حتى تستقيم.

وهذا هو الفرق بين من يتلقى القرآن ومن يستعمل القرآن. المتلقي يجعل القرآن يصوغ لغته ووعيه. أما المستعمل فيأخذ من القرآن ما يزين به لغته الموجودة مسبقًا. الأول يتغير بالقرآن، والثاني يحاول أن يجعل القرآن يخدم ما يريد. الأول يترك اللفظ القرآني يقوده إلى التقوى، والثاني يضع اللفظ القرآني في خدمة عوجه. ولذلك كان الخطر عظيمًا حين يتحول القرآن إلى مادة استشهادٍ لا مادة اهتداء.

ومن صور عوج اللغة كذلك أن تنفصل الكلمة عن العمل. يقول الإنسان ما لا يفعل، ويعد بما لا يفي، ويمدح ما لا يلتزم، ويتكلم عن الحق وهو لا ينصره، وعن التقوى وهو لا يراقب نفسه، وعن العدل وهو يظلم في بيته أو خصومته. وهذا نوعٌ من العوج لا يقع في المفردة وحدها، بل في العلاقة بين القول والحياة. والقرآن يشتد في كشف هذا الباب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ).

فهنا العوج ليس في أن الكلام غير مفهوم، بل في أن الكلام غير صادق مع صاحبه. والكلمة لا تكون مستقيمةً حتى يكون بينها وبين العمل عهد. ولذلك كان القرآن يربي المؤمن على أن يحذر من الفصاحة التي لا يصدقها السلوك.

فليست العبرة أن تستطيع الحديث عن التقوى، بل أن تتقي؛ ولا أن تحسن وصف الصدق، بل أن تصدق؛ ولا أن ترفع شعار العدل، بل أن تعدل.

وهذا بابٌ شديد على أهل البيان؛ لأن صاحب القدرة على الكلام قد تُفتن نفسه بقدرته، فيظن أن حسن التعبير يعوض ضعف العمل. والقرآن يردّه إلى الميزان: القول لا يشفع لصاحبه إذا صار ستارًا على التقصير. بل قد يكون الكلام الجميل أشد خطرًا إذا منح صاحبه صورةً صالحةً تخالف حقيقته. ومن هنا كان لا بد للكاتب والخطيب والعالم أن يكون أخوف الناس من عوج المسافة بين ما يقول وما هو عليه.

وليس معنى ذلك أن لا يتكلم الإنسان حتى يكمل، فالكمال لله، ولكن أن يتكلم وهو يطلب العمل، ويخاف التقصير، ولا يجعل الكلمة بديلاً عن المجاهدة. فالقرآن يريد للكلمة أن تكون بداية طريق، لا تمثالاً من البلاغة يقف صاحبه تحته معجباً بنفسه.

ومن عوج اللغة أيضاً أن تُستعمل في تحطيم الإنسان بدل هدايته. الكلمة قد تكون سيفاً يجرح بلا حق، وقد تكون حجراً يسقط على قلبٍ مكسور، وقد تكون فتنةً تزيد المذنب بأساً بدل أن تفتح له باب التوبة، وقد تكون قسوةً باسم النصيح. والقرآن، مع وضوحه وحزمه، ليس خطاب تحطيم، بل خطاب هداية. يفضح الباطل، لكنه يفتح باب الرجوع. يذكر العذاب، لكنه يفتح باب الرحمة. ينهى بشدة، لكنه لا يغلق باب التوبة.

ومن هنا يتعلم المؤمن أن استقامة اللغة لا تعني الخشونة دائماً، كما أن الرحمة لا تعني التميع. الكلمة المستقيمة هي التي تضع الحق في موضعه، وبالقدر

الذي يصلح به المخاطب. قد تحتاج إلى حزم، وقد تحتاج إلى رفق، وقد تحتاج إلى بيان، وقد تحتاج إلى ستر، وقد تحتاج إلى إنذار، وقد تحتاج إلى تبشير. والقرآن هو المعلم الأعلى لهذا التوازن؛ لأنه غير ذي عوج، فلا يميل إلى قسوة تقتل الرجاء، ولا إلى لين يضيع الحق.

وهذا يبين أن عوج اللغة قد يكون في الإفراط كما يكون في التفريط. قد يعوج الخطاب حين يقسو بلا رحمة، وقد يعوج حين يلين بلا حق. قد يعوج حين يبالغ في التخويف حتى يقطّ، وقد يعوج حين يبالغ في التيسير حتى يؤمّن من الحساب. أما القرآن فيضع الخوف والرجاء في ميزانٍ عجيب، ويربي القلب بينهما، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر.

ومن هنا فإن الاستقامة القرآنية في اللغة ليست مجرد صحة دلالية، بل عدلٌ في الخطاب. أن تعطي كل مقام حقه، وكل معنى وزنه، وكل إنسان ما يناسب حاله من البيان، دون خيانة للحق ولا ظلم للمخاطب. وهذا من فقه الدعوة، وفقه التعليم، وفقه الكتابة، وفقه الإصلاح.

وإذا تأملنا عوج الإنسان في ذاته، وجدنا أنه يبدأ غالبًا من ميلٍ صغير. لا ينحرف الإنسان دفعةً واحدة في الغالب، بل يخطو خطوات؛ وهنا تأتي اللغة لتلعب دورًا خطيرًا: إما أن تنبّه إلى الميل، أو تطمئنّه إليه. فإذا قال لنفسه: هذا ذنب، بقي في داخله باب توبة. وإذا قال: ليست مشكلة، بدأ الضمير ينام. وإذا قال: كل الناس يفعلون، بدأ العوج يصبح عاديًا. وإذا قال: سأفعلها مرة، بدأ التسويف. وهكذا تُهندس النفس سقوطها باللغة قبل أن تسقط بالفعل.

والقرآن يوقظ الإنسان من هذه اللغة المخدرة. يقول له: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾، فيكشف أن الشر خطوات، وأن الخطوة الأولى ليست بريئة. ويقول: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾، فيكشف أن المعاذير قد تكون لغةً يصنعها الإنسان ليغطي بها علمه الداخلي بحقيقة نفسه. وهذه آية عظيمة في فضح عوج الخطاب الذاتي؛ فالإنسان يعرف كثيرًا مما ينكره بلسانه.

وهنا يظهر أن القرآن لا يكتفي بتصحيح ما نقوله للآخرين، بل يصحح ما نقوله لأنفسنا. وهذا أعمق أنواع الإصلاح؛ لأن الإنسان قد يخدع الناس زمانًا، لكنه إذا خدع نفسه فقد طال عليه الطريق. والقرآن يريد أن يوقظ فيك الشاهد الداخلي الذي يقول: أنت تعرف. لا تختبئ خلف عذرك. لا تحسن صياغة المبرر وتظن أنك نجوت. فאלله يعلم، وأنت في أعماقك تعلم.

ومن هنا كان القرآن كتاب صدق. والصدق ليس فقط أن لا تكذب على الناس، بل أن لا تكذب على نفسك أمام الله. أن لا تسمي تقصيرك عذرًا وهو تهاون، ولا تسمي عجزك حكمةً وهو خوف، ولا تسمي رغبتك اجتهاذاً وهي هوى، ولا تسمي انتصارك لنفسك دفاعاً عن الحق. وهذا الصدق الداخلي هو بداية التقوى؛ لأنه لا تقوى بلا مواجهة النفس.

ومن عوج اللغة كذلك عوج المجتمعات حين تصنع خطاباتٍ عامة تُميت الضمير. قد يعتاد الناس ألفاظًا تجعل المنكر مألوفًا، أو تجعل المعروف غريبًا، أو تجعل السخرية من الصالحين ذكاءً، أو تجعل الحياء تخلفًا، أو تجعل الطهر عقدة، أو تجعل القوة بلا رحمة بطولة. وحين ينتشر هذا

القاموس، يصبح الفرد المتقي غريباً، لا لأنه غريبٌ عن الفطرة، بل لأن اللغة العامة انحرفت عن الفطرة.

والقرآن يعيد بناء المجتمع من خلال إعادة بناء قاموسه. ينادي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فيصنع هويةً جديدة. يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، فيعيد تسمية العلاقة بين أهل الإيمان. يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فيقلب ميزان الشرف من النسب والقوة إلى التقوى. يقول: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فيعيد تعريف الفوز. وهكذا ينشئ القرآن لغةً اجتماعيةً جديدة، تخرج الناس من قاموس الجاهلية إلى قاموس الهداية.

فالجاهلية ليست زمناً فقط، بل قاموسٌ ورؤية. كلما سادت أسماءٌ تخالف ميزان الوحي، عاد شيءٌ من الجاهلية. وإذا أرادت الأمة أن تتحرر حقاً، فلا يكفي أن تغيّر أدواتها، بل أن تغيّر قاموسها: ما الشرف؟ ما الفوز؟ ما القوة؟ ما الحرية؟ ما الكرامة؟ ما التقدم؟ ما الإنسان؟ ما الدنيا؟ ما الآخرة؟ إذا أخذت أجوبة هذه الأسئلة من غير القرآن، دخل العوج من أوسع الأبواب.

وهذا لا يعني أن القرآن يمنع الإنسان من اكتساب المعارف البشرية، بل يعني أن المعارف البشرية تحتاج إلى ميزانٍ أعلى يحميها من التآله على الوحي. فالعلوم تصف، والتقنيات تمكّن، والسياسات تنظّم، والاقتصاد يدير، لكن القرآن يجيب عن سؤال الغاية والميزان: لماذا؟ ولمن؟ وبأي حد؟ وإلى أين؟ فإذا غابت هذه الأسئلة، صارت اللغة العلمية أو السياسية أو الاقتصادية قادرةً على تبرير عوج هائل بألفاظٍ باردة.

كم من ظلم في التاريخ جاء في لغة النظام. وكم من استغلال جاء في لغة التنمية. وكم من عدوان جاء في لغة الأمن. وكم من تفكيكٍ للفطرة جاء في لغة الحقوق. وكم من قتلٍ للمعنى جاء في لغة التحديث. والقرآن لا يقبل أن تُعفى الألفاظ الكبرى من المحاكمة؛ يسألها: هل هي حق؟ هل هي عدل؟ هل تحفظ الإنسان عبدًا لله؟ هل تقيم التقوى؟ هل تصون الفطرة؟ هل تمنع الظلم؟ هل تقود إلى النجاة؟

ومن هنا يكون القرآن ضرورةً دائمةً للوعي، لا مجرد كتاب عبادةٍ فردية. إنه يحرس الإنسان من سحر اللغة حين تتحرف، ويحرس الأمة من أن تُستعمر من داخل مصطلحاتها، ويحرس التدين من أن يتحول إلى ألفاظٍ بلا روح، ويحرس العقل من أن يستكبر، ويحرس القلب من أن يبرر هواه.

وحين يقول الله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾، فإنه يمنحنا النموذج الأعلى للغة التي لا تخون. لغةٌ لا تتلاعب بالضعفاء، ولا تتبع الوهم، ولا تزين الذنب، ولا تظلم المخالف، ولا تحابي القريب، ولا تخفف الحق لأجل رضا الناس، ولا تغلظ الباطل حتى تقطع باب التوبة، بل تقول ما ينبغي كما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي؛ لأن مصدرها من العليم الحكيم.

أما الإنسان، فإنه يحتاج أن يتعلم من هذه اللغة القرآنية كيف يستقيم لسانه. وليس استقامة اللسان في ترك الكذب الصريح فحسب، بل في ترك كل ما يفسد وظيفة الكلمة: المبالغة الظالمة، والتعميم الجائر، والغمز الخفي، والتلبيس، والتشويه، واستعمال الحق في غير موضعه، وإخفاء بعض الحقيقة

لإفساد الحكم، وتقديم الكلام على نحوٍ يجعل السامع يعتقد غير الواقع. فكل ذلك من عوج اللغة، وإن لم يكن كذباً مباشراً في صورته.

والتقوى اللسانية من أشد أنواع التقوى؛ لأن اللسان سريع، والهوى حاضر، والناس يتساهلون في الكلام. لكن القرآن يجعل الكلمة داخلةً في الحساب، فيصبح المؤمن أبطاً في الحكم، وأحذر في النقل، وأعدل في الخصومة، وأصدق في المدح والذم، وأبعد عن التشفي، وأقرب إلى الإنصاف. وهذا أثرٌ مباشر للقرآن غير ذي العوج: أنه يربي لساناً لا يحب الالتواء.

ومن أعظم المواضع التي يظهر فيها عوج اللغة: الخصومة. فإذا خاصم الإنسان، بدأ لسانه يختار من الحقيقة ما يخدمه، ويخفي ما يدينه، ويضخم خطأ خصمه، ويصغر خطأ نفسه، ويستعمل الألفاظ التي تستثير الناس. وهنا تظهر التقوى الحقيقية. فالقرآن لا يرضى لك أن تكون عادلاً مع من تحب فقط، بل يأمرك بالعدل ولو مع من تكره. وهذا يعني أن اللغة في الخصومة يجب أن تبقى تحت سلطان الله، لا تحت نار الغضب.

ومن استطاع أن يحفظ لسانه من العوج عند الخصومة، فقد بلغ مرتبةً عظيمة؛ لأن أكثر الناس لا يختبر صدق لغته في الرضا، بل في الغضب. والقرآن يربيك أن الحق لا يصبح باطلاً لأن خصمك قاله، والباطل لا يصبح حقاً لأنك أنت قلتَه، وأن الظلم في سبيل قضيةٍ عادلة يبقى ظلماً، وأن الكذب لنصرةٍ حقٍ مزعوم يفسد صاحبه قبل أن ينصر قضيته.

وهذا كله من آثار قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. فالتقوى ليست في الصلاة والصيام فقط، بل في الجملة التي تكتبها، والخبر الذي تنقله، والحكم الذي تطلقه،

والوصف الذي تصف به الناس، والاسم الذي تمنحه للفعل. وإذا لم تدخل التقوى إلى اللغة، بقي في الإنسان باب عظيم للعوج.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن القرآن لا يريد منا أن نقرأ العربية فحسب، بل أن نتخلق باستقامة البيان القرآني. ليس بمعنى أن كلامنا يصبح ككلام القرآن، فهذا مستحيل، ولكن بمعنى أن نتعلم من القرآن أمانة الكلمة، ونزاهة المقصد، وصدق التسمية، وعدل الخطاب، وخدمة البيان للتقوى. فكلما اقترب لسان المؤمن من هذه المعاني، صار لسانه أقل عوجًا، وصار وعيه أقرب إلى النور.

وإذا كان القرآن قد نزل عربيًّا غير ذي عوج، فإن من الوفاء له أن نقاوم عوج العربية حين تستعمل في الباطل، كما نقاوم عوج أي لغة حين تخدم الضلال. فليست المشكلة في اللسان وحده، بل في الوظيفة. العربية شرفت بالقرآن، لكنها إذا استعملت في الكذب أو الظلم أو الفتنة لم يشفع لها لسانها. فالقرآن لا يقدس كل عبارة عربية، بل يقدس الوحي الذي نزل بالعربية، ويجعل اللغة شريفةً حين تخدم الحق.

وهذا يعيدنا إلى القاعدة الأولى: كل قرآنٍ عربي، وليس كل عربيٍّ قرآنًا؛ وكل بيانٍ قرآني مستقيم، وليس كل بيانٍ بشري مستقيمًا؛ وكل لغةٍ يمكن أن تكون طريقًا إلى الهدى إذا خضعت للحق، ويمكن أن تكون طريقًا إلى العوج إذا خضعت للهوى.

ومن هنا فإن معركة التقوى في زمننا معركة لغة أيضًا. ليست اللغة بمعنى النحو والصرف فقط، بل بمعنى المصطلح، والدلالة، والخطاب، والسردية،

والصورة التي يُعرض بها الحق والباطل. فمن ملك اللغة استطاع أن يوجه الوعي، ومن وجّه الوعي استطاع أن يوجه الإرادة، ومن وجه الإرادة استطاع أن يوجه الفعل. ولذلك لا عجب أن يكون القرآن كتاب بيان؛ لأن إصلاح الإنسان يبدأ من إعادة بناء ما يسمع ويفهم ويعتقد ويقول.

والقرآن لا يقاوم عوج اللغة بالضجيج، بل بالحق الهادئ الحاسم. يضع الكلمة في موضعها، ويعيد الإنسان إلى أصل السؤال: هل هذا يرضي الله؟ هل هذا ينجيني يوم ألقاه؟ هل هذا صدق؟ هل هذا عدل؟ هل هذا تقوى؟ فإذا عاد الإنسان إلى هذه الأسئلة، انكشفت كثيرٌ من الألفاظ التي كانت تخدعه.

وهنا يتبين أن **عوج اللغة وعوج الإنسان** ليسا موضوعين منفصلين، بل وجهان لحقيقة واحدة. الإنسان المعوج يحتاج لغةً معوجةً ليبرر نفسه، واللغة المعوجة تزيد الإنسان عوجًا لأنها تطمئنه إلى انحرافه. أما القرآن المستقيم فيكسر هذه الدائرة: يردّ اللغة إلى الحق، فتردّ الإنسان إلى الصدق، ثم يثمر الصدق تقوى.

ولذلك كان من أعظم ما يفعله القرآن في القلب أنه يجعله ينفر من التلبس. يصبح المؤمن حساسًا تجاه الكلمة التي تخفي أكثر مما تكشف، وتجاه العبارة التي تتزين بلا حق، وتجاه الخطاب الذي يتجنب تسمية الذنب باسمه، وتجاه القسوة التي تلبس لباس الغيرة، وتجاه التميع الذي يلبس لباس الرحمة. هذه الحساسية ليست تشددًا، بل يقظة فرقانية.

وفي المقابل، يعلم القرآن المؤمن أن لا يظلم باسم كشف العوج. فليس كل خطأ نفاقًا، وليس كل ضعف خيانة، وليس كل جاهل معاندًا، وليس كل مخالف

عدواً. من عوج اللغة أيضاً تضخيم الأحكام على الناس، وإطلاق الألفاظ الثقيلة بلا بينة، وتحويل الظنون إلى يقين، والاشتباه إلى إدانة. والقرآن ينهى عن الظن الآثم، وعن البهتان، وعن العدوان في القول. فاستقامة اللغة تعني كذلك العدل في الحكم على الناس.

وهذا ميزانٌ دقيق: أن تسمي الباطل باطلاً بلا تمبيع، وأن لا تظلم صاحب الباطل بما لم يثبت عليه؛ أن تحمي الحق من العوج، وتحمي الإنسان من الظلم؛ أن تكون واضحاً بلا فجور، ورحيماً بلا مDAHنة، وعادلاً بلا ضعف. وهذه من أعلى مراتب البيان، ولا يربي عليها إلا القرآن.

ومن هنا، فإن الفصل كله يعود إلى مركز الآية: القرآن عربي غير ذي عوج ليصنع تقوى. ومن التقوى أن تستقيم لغتنا. ومن استقامة لغتنا أن نسمي الأشياء كما يسميها الوحي، وأن نحذر من قاموس الهوى، وأن لا نجعل البلاغة خادمةً للباطل، وأن لا نسمح للمصطلحات أن تسرق منا الفطرة، وأن لا نضع الكلمة في غير موضعها.

فالإنسان المتقي لا يتقي بيده وعينه فقط، بل يتقي بلسانه ومعجمه وطريقة سرده للأشياء. يتقي الله في الاسم الذي يمنحه للفعل، وفي الوصف الذي يمنحه للإنسان، وفي الحكاية التي يرويها، وفي النص الذي يكتبه، وفي الصمت حين يكون الكلام ظلماً، وفي الكلام حين يكون الصمت خيانةً للحق.

وبهذا نعرف لماذا كانت اللغة طريقاً إلى التقوى في الآية. لأن التقوى تحتاج إلى وعي لا يخون، والوعي يحتاج إلى لغة لا تعوج، واللغة لا تستقيم إلا إذا

دخلت تحت سلطان الوحي. فالقرآن لا يكتفي بأن يكون هو غير ذي عوج، بل يريد أن يحررنا من العوج الذي في ألسنتنا وقلوبنا ووعينا.

وحين يستقيم اللسان بالقرآن، تبدأ النفس في استعادة حقيقتها. لا تعود تحتاج إلى أسماء مزيفة لتعيش. تستطيع أن تقول: أخطأت، أذنبت، قصرت، ظلمت، غفلت، احتجت إلى التوبة. وهذه الكلمات، مع أنها ثقيلة على النفس، هي بداية الحرية الحقيقية؛ لأن الإنسان لا يتحرر من الذنب حتى يتوقف عن تجميله. ولا يتوب من العوج حتى يسميه عوجًا.

وهكذا يصبح القرآن مرآةً رحيمةً وصارمةً في آنٍ واحد؛ رحيمةً لأنها تريد نجاتك، وصارمةً لأنها لا تكذب عليك. ومن أراد النجاة أحب هذه الصرامة؛ لأنها صرامة الطبيب لا صرامة العدو، ووضوح الدليل لا قسوة الشامت. والقرآن حين يكشفك لا يريد فضيحتك، بل يريد أن يردّك إلى ربك.

وبهذا ينتهي هذا الفصل إلى خلاصة كبرى: إن عوج اللغة ليس خللاً في التعبير فقط، بل خللٌ في علاقة الإنسان بالحق. وإن استقامة القرآن ليست جمالاً في النظم فقط، بل رحمةٌ تحفظ المعنى من الفساد، وتحفظ القلب من التبرير، وتحفظ الأمة من القواميس المضللة. ومن دخل في مدرسة القرآن تعلّم أن الكلمة ليست صغيرة، وأن الاسم ليس بريئاً دائماً، وأن البيان قد يكون عبادةً إذا استقام، وقد يكون فتنةً إذا اعوج.

وفي الفصل العاشر، ننقل إلى خاتمة البناء: نحو فقه قرآني للبيان؛ حيث نجمع ثمار الفصول السابقة في تصور متكامل: كيف يعلّمنا القرآن أن نفكر،

وأن نفهم، وأن نتكلم، وأن نكتب، وأن نحرس المعنى، وأن نجعل اللغة طريقاً
إلى التقوى لا أداة للعوج.

الفصل العاشر

نحو فقه قرآني للبيان

بعد هذه الرحلة في قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، لم نعد أمام آية تصف لغة القرآن فحسب، بل أمام أصل كبير يمكن أن يُبنى عليه فقه قرآني للبيان؛ فقه لا ينظر إلى اللغة باعتبارها أداة تعبير فقط، ولا إلى البلاغة باعتبارها جمالاً فنياً فقط، ولا إلى الفصاحة باعتبارها قدرة على التأثير فقط، بل ينظر إلى البيان كله من جهة علاقته بالحق، والهداية، والاستقامة، والتقوى.

فإذا كان القرآن قد وصف نفسه بأنه عربي غير ذي عوج، ثم جعل الغاية ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فمعنى ذلك أن اللغة في أعلى صورها ليست انفصالاً عن الأخلاق، ولا مهارة محايدة، ولا طاقة سائبة يستعملها الإنسان حيث شاء، بل هي أمانة. الكلمة أمانة، والبيان أمانة، والتسمية أمانة، والتأويل أمانة، والشرح أمانة، والصمت أحياناً أمانة، والكلام أحياناً أمانة أعظم.

وهذا الفقه القرآني للبيان يبدأ من أصل أول: أن الكلمة ليست بريئة من المقصد. فالإنسان لا يتكلم بالحروف وحدها، بل يتكلم بنيته، وخوفه، وهواه، وتقواه، وعدله، وانحيازه، وما أخفاه في قلبه قبل أن يظهر على لسانه. قد تكون العبارة في ظاهرها صحيحة، لكنها موضوعة في سياق يخدم باطلاً؛ وقد تكون الكلمة صادقة في مفرداتها، لكنها كاذبة في أثرها لأنها أريد بها

التلبّيس؛ وقد تكون الجملة جميلة، لكنها معوجة لأنها تصرف السامع عن الحق لا إليه.

ومن هنا يعلّمنا القرآن أن البيان لا يُوزن بجماله وحده، بل بصدقه واستقامته وماله. لا يكفي أن تكون العبارة مشرقة، بل يجب أن تكون أمينة. لا يكفي أن تكون مؤثرة، بل يجب أن يكون أثرها إلى الحق لا إلى الفتنة. لا يكفي أن تكون فصيحة، بل يجب أن تكون غير ذات عوج. وهذا هو الفرق بين البلاغة حين تكون في سلطان الهوى، والبلاغة حين تدخل في سلطان التقوى.

إنّ فقه البيان القرآني يعلّمنا أن اللغة لها ثلاث درجات: درجة الإفصاح، ودرجة الإرشاد، ودرجة التزكية. فقد تفصح اللغة عن المعنى، وهذا قدرٌ أول؛ وقد ترشد إلى الصواب، وهذا أرفع؛ وقد تزكي القلب وتعينه على التقوى، وهذا مقام القرآن الأعلى. فالقرآن لا يكتفي بأن يكون مفهومًا، بل يريد أن يكون هاديًا، ولا يكتفي بأن يهدي الذهن، بل يزكي القلب، ولا يكتفي بأن يضع الحق أمام الإنسان، بل يطالبه أن يستقيم به.

ومن هنا ينبغي لكل من يكتب أو يعلم أو يخطب أو ينصح أو يجادل أن يسأل نفسه: هل بياني يقرب الناس من الحق، أم يفتح لهم بابًا من العوج؟ هل أستعمل اللغة لأكشف، أم لأخفي؟ هل أشرح لأهدي، أم لأغلب؟ هل أكتب لأرفع المعنى، أم لأصنع صورةً لنفسي؟ هل أزين العبارة حتى تخدم الحق، أم حتى يتوقف الناس عندي وينسوا ما دعوتهم إليه؟

هذه الأسئلة ليست ترفًا أخلاقيًا، بل هي من صميم التقوى؛ لأن صاحب البيان قد يضلّ ويضلّ ببيانه إذا لم يراقب الله في كلمته. وكثيرٌ من العوج لا يدخل

من باب الجهل، بل من باب القدرة على الكلام. فالضعيف في البيان قد ينحرف، لكن انحرافه محدود، أما صاحب البيان إذا اعوجّ، فقد يمنح العوج لغةً جميلة، ويصنع للباطل هيبةً لفظية، ويجعل الناس يظنون أن قوة العبارة دليلٌ على صحة المعنى.

ولذلك كان لا بد من فقهٍ قرآني يحرس البيان من فتنة البيان نفسه.

وأول قاعدة في هذا الفقه: أن القرآن هو الميزان الأعلى للغة المؤمنة. ليس معنى ذلك أن كل كلامٍ صالح يجب أن يكون اقتباسًا مباشرًا، ولا أن الأساليب البشرية تُلغى، ولا أن الإبداع يضيق؛ بل المعنى أن روح البيان المؤمن يجب أن تتعلم من القرآن: وضوح الحق، وشرف المقصد، وعدل التسمية، ورفض التلبيس، وجعل الجمال خادمًا للهداية. فالقرآن لا يقتل الإبداع، بل يطهره من العوج، ويرفعه من الزينة إلى الرسالة.

والقاعدة الثانية: أن اللسان لا ينفصل عن القلب. فمن أراد أن يستقيم بيانه فليفتش أولاً عن استقامة قلبه. كم من كلمةٍ خرجت صحيحةً في ظاهرها، ولكنها محمّلةٌ بحسدٍ خفي، أو انتقامٍ مستتر، أو رغبةٍ في الظهور، أو طلبٍ للغلبة. والقرآن لا يكتفي بتقويم ظاهر القول، بل يربط القول بالتقوى؛ لأن القلب إذا اعوجّ جعل اللسان يخدم عوجه، ولو تكلم بألفاظ الحق.

ولهذا كان من أعظم آداب البيان أن يسأل الإنسان قبل الكلام: ما نيتي؟ هل أريد وجه الله؟ هل أريد نصرة الحق أم نصرة نفسي؟ هل أريد هداية المخاطب أم كسره؟ هل أريد إصلاح الخطأ أم التشفي من صاحبه؟ هل أتكلم لأن الكلام

واجب، أم لأن نفسي لا تحتل الصمت؟ هذه الأسئلة تُخرج اللغة من العادة إلى العبادة.

والقاعدة الثالثة: أن البيان القرآني يجمع بين الصدق والرحمة. لا يبيع الحق باسم اللطف، ولا يقتل الرحمة باسم الصراحة. فكم من خطاب يزعم أنه رحيم، لكنه يميع الحدود حتى لا يبقى للحق وجهٌ واضح. وكم من خطاب يزعم أنه صادق، لكنه قاسٍ متشفٍ، يجرح حيث يمكن أن يداوي، ويهدم حيث يمكن أن يبني. أما القرآن فيعلّمنا أن الحق لا يحتاج إلى فضاظة ليكون حقاً، وأن الرحمة لا تحتاج إلى خيانة لتكون رحمة.

ومن تأمل القرآن رأى أنه يخاطب الإنسان بحسب مقامه؛ يلين حيث يكون اللين هداية، ويشتد حيث تكون الشدة رحمة، وينذر حيث يحتاج القلب إلى فرع يوقظه، ويبشر حيث يحتاج إلى رجاءٍ يحمله، ويكشف المرض حيث يكون الستر إقراراً للفساد، ويفتح باب التوبة حيث يكون اليأس مفسدةً أعظم من الذنب. هذه الحكمة في الخطاب من أعظم معاني كونه غير ذي عوج.

والقاعدة الرابعة: أن الكلمة لا تُقاس بمجرد صحتها اللغوية، بل بموقعها ووقتها وأثرها. قد تكون الكلمة حقاً في نفسها، لكنها إذا قيلت في غير موضعها صارت فتنة. وقد يكون السكوت عجزاً في موضع، وحكمةً في موضع، وخيانةً في موضع ثالث. والقرآن يعلمنا فقه المقامات؛ فليس كل معنى يُقال لكل أحدٍ بالطريقة نفسها، ولا كل حق يُلقى بلا حكمة، ولا كل نصيحة تصلح إذا خلت من معرفة حال المخاطب.

وهنا يظهر أن فقه البيان ليس مجرد فقه ألفاظ، بل فقه نفوسٍ وسياقاتٍ ومآلات. فالقرآن نفسه ينزل بالمعنى في مقامه، ويضع الجملة في موضعها، ويختار لكل سياقٍ ما يناسبه من خطاب. ومن تعلّم من القرآن، أدرك أن البيان ليس اندفاعاً، بل تقدير؛ وليس إسرافاً في الكلام، بل وضعٌ للكلمة حيث تثمر.

والقاعدة الخامسة: **أن اللغة يجب أن تحرس المعنى من التزييف.** وهذا من أعظم واجبات البيان في زمنٍ كثر فيه تلبيس الأسماء. يجب أن نعيد للأشياء أسماءها القرآنية: الظلم ظلم، ولو لبس ثوب السياسة. والربا ربا، ولو سُمّي فائدة. والفاحشة فاحشة، ولو سُمّي حرية. والخيانة خيانة، ولو سُمّيت مصلحة. والتوبة توبة، ولو رآها المتكبرون ضعفاً. والتقوى كرامة، ولو استهزأ بها الغافلون.

لكن هذا الحزم في التسمية يجب أن يقترن بالعدل. فلا نحمل الناس ما لا يحتملون، ولا نطلق الأوصاف الثقيلة بلا بينة، ولا نحول المصطلحات الشرعية إلى أسلحةٍ طائشة. فاستقامة البيان تعني أن لا نخفف الباطل، وأن لا نظلم المخطئ بما ليس فيه. وكلتا الجهتين من التقوى.

والقاعدة السادسة: **أن البيان القرآني لا يفصل الجمال عن الهداية.** وهذا أصلٌ مهم لمن يكتب في الدين والفكر والأدب. فليس المطلوب أن تكون العبارة جافةً حتى تكون صادقة، ولا أن تكون باهتةً حتى تكون ورعة. القرآن في أعلى درجات الجمال، لكنه جمالٌ لا ينفصل عن الحق. ومن هنا يجوز للكاتب المؤمن أن يطلب العبارة الرفيعة، والصورة الموحية، والإيقاع المؤثر،

بشرط أن يبقى الجمال خادماً للمعنى لا سيّداً عليه، وأن لا تتحول البلاغة إلى حجابٍ عن المقصد.

إن الجمال إذا دخل في خدمة الهداية صار نعمة، وإذا انفصل عنها صار فتنة. والكاتب الذي يتعلم من القرآن لا يزهد في الجمال، لكنه يخاف من جمالٍ لا يتقي الله. يخاف من عبارةٍ تدهش ولا تهدي، ومن صورةٍ تلمع ولا تكشف، ومن أسلوبٍ يأسر القارئ لشخص الكاتب لا لكلام الله. والميزان هنا دقيق: أجمل الكتابة ما جعلت المعنى أكبر من الكاتب، والحق أكبر من العبارة، والله أكبر من كل شيء.

والقاعدة السابعة: أن فهم القرآن يحتاج إلى تواضعٍ للسانه. فمن فقه البيان القرآني أن لا نقحم النص بما لا يحتمله، ولا نقطع ألفاظه عن عريّته، ولا نحاكمه إلى أذواقنا المتقلبة، ولا نجعل العصر سيّداً عليه. القرآن عربي، ومن أراد فهمه فليدخل من باب عريّته، وسياقه، واستعماله، وما بينته السنة، وما جرى عليه أهل العلم من أصولٍ معتبرة. ليس كل خاطرٍ تدبراً، ولا كل احتمالٍ معنى، ولا كل حادثةٍ فتحاً.

والتواضع للسان القرآن ليس جموداً، بل أدب. إنه اعتراف بأن الوحي لم ينزل عبثاً في هذا اللسان، وأن اللفظ المنزل له حرمة، وأن المعنى ليس ملكاً مفتوحاً للهوى. نعم، تتجدد الهدايات، وتتسع التأملات، وتنزل الآيات على الوقائع المتغيرة، لكن كل ذلك يجب أن يبقى داخل صراط المعنى لا خارجه، وداخل الاستقامة لا العوج.

والقاعدة الثامنة: أن البيان مسؤول عن بناء الإنسان لا عن ملء الفراغ. فالقرآن لم ينزل ليملأ أوقات السامعين، بل ليبنّيهم. ومن تعلم منه، لم يعد يكتب أو يتكلم عبثاً. يسأل: ماذا تصنع كلمتي في القارئ؟ هل تزيده وعياً؟ هل توقظه من غفلة؟ هل تعينه على تقوى؟ هل تصحح تصوّراً؟ هل تردّ باطلاً؟ هل تفتح باب رحمة؟ هل تنقذه من عوج؟ أم هي مجرد رصفٍ جميلٍ يمر على ذهن ثم يتلاشى؟

وهذا لا يعني أن كل كلمة يجب أن تكون وعظاً مباشراً، بل يعني أن يكون للبيان مقصدٌ صالح. حتى الجمال الأدبي يمكن أن يكون هدايةً إذا كشف للإنسان شيئاً من حكمة الله، أو رقق قلبه، أو أعاد إليه حس المعنى، أو حرره من التفاهة. فالبيان المؤمن لا يضيق بالحياة، لكنه يرفض العبث.

والقاعدة التاسعة: أن البيان لا يبلغ كماله حتى يتحول إلى عمل. وهذا هو الامتحان الأخير لكل خطاب. ما قيمة أن نتحدث عن القرآن العربي غير ذي العوج، ثم تبقى ألسنتنا معوجة في الخصومة، وعبارتنا ظالمة في الحكم، ومصطلحاتنا سائبة في الفهم، وتديننا بعيداً عن التقوى؟ إن أعظم شرح لهذه الآية أن تصير هي خُلُقاً في القارئ: وضوح بلا تلبّيس، واستقامة بلا مكر، وجمال بلا غرور، وعلم بلا كبر، وبيان يقود إلى التقوى.

والقاعدة العاشرة: أن غاية البيان هي أن يكون طريقاً إلى الله. هذا هو الجامع لكل ما سبق. فإذا تكلم الإنسان، فليتكلم بما لا يبعده عن الله. وإذا كتب، فليكتب بما لا يحجبه عن الله. وإذا جادل، فليجادل وهو يذكر أنه موقوفٌ بين يدي الله. وإذا شرح القرآن، فليعلم أنه يتعامل مع كلام الله. وإذا صمت، فليكن

صمته لله. فاللغة كلها يمكن أن تصير عبادةً إذا دخلت في التقوى، ويمكن أن تصير وبالاً إذا دخلت في الهوى.

ومن هنا يتشكل معنى **فقه البيان القرآني**: أن نتعلم من القرآن كيف نفكر قبل أن نتكلم، وكيف نسمي قبل أن نحكم، وكيف نزن قبل أن نوثر، وكيف نجعل الكلمة جسراً إلى الحق لا قناعاً للباطل. إنه فقهٌ يربط اللسان بالقلب، والقلب بالله، والمعنى بالمصير.

وليس هذا الفقه خاصاً بالعلماء والكتّاب وحدهم، وإن كانوا أحوج الناس إليه، بل هو حاجة كل مؤمن. الأب يحتاجه حين يربي أبناءه؛ هل يستعمل الكلمة لتكسر أم لتقوم؟ المعلم يحتاجه حين يشرح؛ هل يفتح المعنى أم يثقله؟ الداعية يحتاجه حين ينصح؛ هل يهدي أم يستعرض؟ القاضي يحتاجه حين يحكم؛ هل يسمي الأشياء بحق؟ الإعلامي يحتاجه حين ينقل؛ هل يكشف أم يضلل؟ الزوج والزوجة يحتاجانه في البيت؛ فكم من بيتٍ هدمته كلمةٌ معوجة، وكم من قلبٍ داوته كلمةٌ مستقيمة.

إن الكلمة ليست صغيرة في القرآن. بها يدخل الإنسان في الإسلام، وبها يذكر الله، وبها يدعو، وبها يتوب، وبها يشهد، وبها يظلم، وبها يكذب، وبها يفترى، وبها يصلح. ومن عرف هذا، لم يعد يطلق لسانه بلا رقابة. صار يتقي الله في اللغة كما يتقيه في المال والنظر والعمل.

ومن تمام هذا الفقه أن نعيد النظر في علاقتنا بالعربية نفسها. لا ينبغي أن تكون العربية عندنا مجرد مادة مدرسية، ولا مجرد هوية ثقافية، ولا مجرد أداة أدبية، بل ينبغي أن تكون قبل ذلك وبعده لساناً نقرب به من القرآن.

وهذا لا يعني احتقار اللغات الأخرى، ولا حبس الهداية في قومٍ دون قوم، وإنما يعني الوفاء للسان الذي اختاره الله لكتابه. فمن أحب القرآن أحب لسانه، ومن أحب لسانه خدمه بالعلم والعمل، لا بالمفاخرة الفارغة.

وأعظم خدمة للعربية ليست أن نتغنّى بها فقط، بل أن نردها إلى وظيفتها القرآنية: أن تكون لغة حق، وصدق، وبيان، واستقامة، لا لغة ضجيجٍ وفراغٍ وتلبّيس. فما قيمة عربيةٍ فصيحةٍ تخدم الكذب؟ وما قيمة زخرفٍ لغويٍّ لا يوقظ التقوى؟ شرف العربية الأعظم في القرآن، فمن أراد أن يشرف بها فليجعلها خادمةً لما شرفت به.

وفي المقابل، فإن من فقه البيان القرآني أن نرحم غير العربي، وأن نفتح له أبواب المعنى، وأن نعلم أن القرآن هدىً للعالمين. فليست العربية حاجزًا نضعه بين الناس والقرآن، بل جسرًا ندعوهم إليه. نترجم المعاني، ونشرح، ونعلم، ثم نقول لمن استطاع: اقترب من الأصل؛ ففي الأصل من النور ما لا تنقله الترجمة كاملاً. هكذا نحفظ عالمية القرآن وخصوصية لسانه معًا.

إن هذا الفقه القرآني للبيان يجعلنا نفهم أن غير ذي عوج ليست صفةً للقرآن نؤمن بها ثم نتركها معلقةً في العقيدة فقط، بل هي معيارٌ نعرض عليه خطابنا كله. هل في كلامنا عوج؟ هل في تفسيرنا عوج؟ هل في لغتنا السياسية والاجتماعية والفكرية عوج؟ هل في خطابنا الديني عوج؟ هل في مدحنا وذمنا عوج؟ هل في صمتنا عوج؟ هل في مجاملاتنا عوج؟ هل في غضبنا عوج؟

وكلما اكتشف الإنسان عوجًا في لغته، فقد وجد بابًا من أبواب التزكية. لا ييأس، بل يعود إلى القرآن، يتعلم منه الاستقامة. القرآن لا يطلب من الإنسان

أن يكون معصومًا، بل أن يكون أوّابًا، يقبل التقويم، ويعود إذا مال، ويستغفر إذا قال ما لا ينبغي، ويراجع إذا ظلم بعبارته، ويعتذر إذا أخطأ في حكمه، ويتعلم أن جمال الكلمة لا يبرر ظلمها.

وهذا من أعظم آثار التقوى: أن يصبح الإنسان قابلاً للتصحيح. فالمتكبر إذا نُبّه إلى عوج عبارته دافع عنها، والمتقي إذا نُبّه شكر من نبّهه، لأن مراده ليس الانتصار لعبارته، بل أن لا يقول على الله أو على الناس إلا حقًا. ومن هنا تصير اللغة موضع مجاهدة يومية؛ نجاهد الكذب، والمبالغة، والتعميم، والتسرع، والتلبيس، والتشفي، والغرور، وحب الظهور.

وبذلك يتحول البيان إلى عبادة خفية. قد لا يراك الناس وأنت تحذف كلمةً كانت ستظلم إنسانًا، أو تمتنع عن وصفٍ قاسٍ، أو تعدّل جملةً فيها تعميم، أو تترك مبالغةً كانت ستزيد النص جمالًا لكنها تنقصه صدقًا، لكن الله يعلم. وهذه لحظات تقوى لا يلتفت إليها كثيرون، وهي عند الله عزيمة؛ لأنك أثرت صدق المعنى على زينة اللفظ، وأثرت رضاه على إعجاب الناس.

ومن هنا يمكن أن نقول إن أعلى مراتب البيان المؤمن أن يكون صاحبه مستعدًا أن يضحي بجمالٍ لا يرضي الله، وبعبارةٍ تلمع لكنها لا تنصف، وبصورةٍ مدهشة لكنها تفتح باب لبس، وبانتصارٍ لغويٍّ في خصومةٍ لا يقوم على عدل. فالبيان حين يتهذب بالتقوى يصبح أكثر صدقًا، وقد يصير أجمل؛ لأن الجمال الصادق أعمق من الجمال المتكلف.

وإذا جمعنا خيوط الكتاب كله، وجدنا أن الآية العظيمة رسمت لنا بناءً كاملاً:

(قُرْآنًا): لأن الأصل كلام الله المتلو، الحاضر، المتكرر، الذي لا يُستبدل به غيره.

(عَرَبِيًّا): لأن الله جعل للهدى لساناً مبيّناً، ومن أراد الأصل فليحترم لسانه. (غَيْرَ ذِي عَوَجٍ): لأن البيان القرآني سالمٌ من الميل، حارسٌ للمعنى، مقيمٌ للطريق.

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ): لأن الغاية ليست الإعجاب، ولا الترف الفكري، ولا المفاخرة اللغوية، بل أن يصبح الإنسان أتقى.

وهذه الكلمات الأربع الكبرى تصلح أن تكون منهجاً كاملاً للقراءة والكتابة والحياة:

أن يكون لك أصلٌ ترجع إليه، لا كلامٌ متبعثر.

وأن يكون لك لسانٌ واضحٌ يحفظ المعنى، لا غموضٌ يصنع العذر.

وأن تكون مستقيماً في قصدك وطريقك، لا صاحب التفاف.

وأن تجعل النهاية تقوى الله، لا مدح الناس.

ومن هنا يخرج الكتاب بخلاصةٍ جامعة: **البيان في القرآن ليس زخرفةً للحق، بل طريقٌ إليه.** فالحق في القرآن لا يأتي عارياً من الجمال، والجمال لا يأتي عارياً من الحق؛ اللفظ والمعنى، البيان والهداية، العربية والتقوى، كلها داخلةٌ في هندسةٍ واحدة. ومن فصل بينها أفسد الفهم؛ من جعل العربية بلا تقوى جعلها مفاخرة، ومن جعل التقوى بلا عربية أضعف باب الفهم، ومن جعل البيان بلا استقامة جعله فتنة، ومن جعل الاستقامة بلا بيان عطل الحجة.

إن القرآن يعلمنا أن الكلمة حين تستقيم تصبح مناراتٍ في الطريق، وأن اللغة حين تخضع لله تصير من جنود الهداية، وأن البيان حين يتطهر من العوج يصنع في القلب خشيةً لا تصنعها العبارة الملتوية مهما زخرفت. ومن هنا كان وصف القرآن لنفسه بأنه عربيٌّ غير ذي عوج ليس خبرًا عن لغةٍ فقط، بل خبرًا عن رحمة الله بالإنسان: أن جعل له خطابًا يبلغه، ويهديه، ويكشف له عوجه، ويقيم له الصراط، ويدعوه إلى التقوى.

ولذلك فإن حاجتنا إلى هذا الفقه ليست حاجةً معرفيةً فحسب، بل حاجةٌ وجودية. نحن نعيش في عالمٍ تتنازع فيه اللغات على الإنسان: لغة السوق، ولغة السياسة، ولغة الشهوة، ولغة القوة، ولغة الدعاية، ولغة الخوف، ولغة التسلية، ولغة الفلسفات المتغيرة. وكل لغةٍ تريد أن تسمي له العالم من جهتها، وأن تمنحه قاموسًا يرى به نفسه والحياة. فإذا لم يأخذ المؤمن قاموسه الأعلى من القرآن، أخذته القواميس الأخرى من حيث يشعر أو لا يشعر.

والقرآن يأتي ليقول له: لا تدع أحدًا يسمي لك الوجود بعيدًا عن الله. لا تدع أحدًا يعيد تعريفك بعيدًا عن العبودية. لا تدع أحدًا يجعل الدنيا أكبر من الآخرة. لا تدع أحدًا يزخرف لك العوج باسمٍ جميل. عد إلى القرآن؛ فهو عربيٌّ غير ذي عوج، فيه الاسم الصادق، والميزان العادل، والطريق المستقيم.

وهذه العودة لا تكون بمجرد رفع المصحف شعارًا، بل بأن يصبح القرآن مرجعًا فعليًا في الفهم والحكم واللغة والضمير. أن نسأله عن أسمائنا، عن مفاهيمنا، عن أولوياتنا، عن غضبنا ورضانا، عن كتابتنا وخطابنا، عن خوفنا

ورجائنا، عن علاقتنا بالدنيا والآخرة. عندها فقط يبدأ البيان القرآني في إعادة بناء الإنسان.

ومن فقه البيان القرآني أيضًا أن نعرف حدود بياننا أمام بيان الله. مهما كتبنا عن القرآن، يبقى كلامنا حول النور لا النور نفسه. ومهما تأملنا، يبقى القرآن أعلى. ومهما فتح الله من المعاني، فالفضل لله، والكمال لكلامه، والنقص في عباراتنا. وهذه المعرفة تحمي الكاتب من الغرور، وتحمي القارئ من أن يستبدل كلام البشر بكلام الله. أشرف ما نكتبه عن القرآن أن يكون جسرًا يعود بالقلب إلى القرآن.

ولهذا ينبغي أن تُختم كل كتابة في القرآن بنوعٍ من الخضوع: يا رب، هذا جهدٌ فقير حول كلامك العظيم؛ فإن كان فيه حقٌّ فمن فضلك، وإن كان فيه نقصٌ فمن ضعفنا، فاغفر لنا، وعلمنا، ولا تجعل كلامنا حجابًا عن كلامك، ولا تجعل بياننا فتنةً لنا، واجعل القرآن حجةً لنا لا علينا.

إن فقه البيان القرآني في نهايته ليس نظريةً جافة، بل أدب عبودية. أن تعرف أنك حين تتعامل مع القرآن فأنت أمام كلام الله. وأنت حين تتكلم عن الحق فأنت مسؤول. وأنت حين تحمل اللغة فأنت تحمل أمانة. وأنت حين تكتب كلمة قد تفتح بها قلبًا أو تغلقه، ترفع وعيًا أو تضلله، تنصر حقًا أو تلبسه. ومن عرف هذا خاف، ومن خاف استقام، ومن استقام صار بيانه أقرب إلى التقوى.

وهكذا نعود إلى بداية الطريق: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. كأن الآية تقول لنا: هذا هو المثال الأعلى للبيان؛ كلامٌ من الله، بلسانٍ مبين،

بلا عوج، لغاية التقوى. فخذوا منه معياركم، وتعلموا منه كيف تكون الكلمة طريقاً، لا متاهة؛ نوراً، لا دخاناً؛ أمانةً، لا حيلة؛ عبوديةً، لا غروراً.

ومن هنا، فإن أصدق خاتمة لهذا الفصل أن نقول: حين تستقيم الكلمة، يستقيم شيءٌ من الإنسان. وحين يستقيم الإنسان بالقرآن، تصير حياته كلها أبلغ من كلامه. فليس البيان الأعلى أن نقول عن التقوى ما يدهش، بل أن تصير التقوى ظاهرةً فينا حتى يتكلم سلوكنا قبل ألسنتنا. وليس أعظم أثر للقرآن أن نصوغ حوله العبارات، بل أن يصوغنا هو على هديه.

فإن كان القرآن عربياً غير ذي عوج، فليكن حظنا منه أن تقلّ عوجتنا، وأن يصدق لساننا، وأن تستقيم نياتنا، وأن نردّ اللغة إلى وظيفتها الأولى: أن تكون شاهدةً للحق، خادمةً للهداية، سالكةً إلى الله.

وهذا هو فقه البيان القرآني:

أن لا تكون الكلمة جميلةً فقط، بل صادقة.

وأن لا تكون صادقةً فقط، بل رحيمة.

وأن لا تكون رحيمةً فقط، بل مستقيمة.

وأن لا تكون مستقيمةً فقط، بل موصلةً إلى التقوى.

فإذا بلغت الكلمة هذا، صارت قبساً من هداية القرآن، لا في مصدرها،

فالمصدر لله وحده، ولكن في سمتها ووظيفتها ووجهتها.

وبذلك تكتمل فصول الكتاب العشرة، لا اكتمال إحاطة بالآية، فالآية أوسع من الكتاب، ولكن اكتمال مسارٍ في النظر: من معنى أن يكون القرآن قرآناً، إلى عربيته، إلى الفرق بين اللسان والبيان القرآني، إلى نفي العوج، إلى سر

اقتران العربية بالاستقامة، إلى التقوى، إلى الإعجاز والحجة، إلى رحلة المعنى من اللفظ إلى القلب، إلى خطر عوج اللغة، ثم إلى فقه قرآني للبيان. ويبقى أن تأتي الخاتمة الكبرى لتجمع هذا كله في نفس واحد: حين تستقيم الكلمة يستقيم الطريق.

الخاتمة الكبرى

حين تستقيم الكلمة يستقيم الطريق

ليست الآية الكريمة: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وصفًا عابرًا للقرآن، ولا تقريرًا لغويًا محضًا عن لسان التنزيل، ولا جملةً تتوقف عند حدود البلاغة والفصاحة، بل هي، في عمقها البعيد، إعلانٌ عن الصلة الكبرى بين استقامة البيان واستقامة الإنسان؛ بين الكلمة التي لا عوج فيها، والقلب الذي يُدعى إلى التقوى؛ بين اللغة حين تكون طريقًا إلى الحق، والنفس حين تنجو من ممرات الالتواء والهوى والتزييف.

لقد بدأنا من سؤالٍ بسيطٍ في ظاهره: ما علاقة القرآن بالعربية؟ ثم انفتح السؤال على أفقٍ أوسع؛ لأن العربية في القرآن ليست مجرد وعاءٍ للمعنى، ولا مجرد لسانٍ اختاره الله من بين الألسنة اختياريًا تاريخيًا منفصلًا عن مقصد الهداية، بل هي جزءٌ من هندسة البلاغ الإلهي، ومفتاحٌ من مفاتيح إقامة الحجة، ومجالٌ من مجالات الإعجاز، وطريقٌ من طرق انكشاف الحق للقلب والعقل والضمير.

فالقرآن قرآنٌ أولًا؛ أي كلامٌ متلوٌّ حاضرٌ يعود على القلب مرةً بعد مرة، لا ليمنحه معرفةً عابرة، بل ليعيد تشكيله، ويوقظه، ويقوّمه، ويجعله يقف أمام الله وقوف العبد الذي سمع وفهم وعلم أنه مسؤول. ثم هو عربيٌّ؛ أي نزل بلسانٍ مبين، لا ليحصر الهداية في قوم، بل ليجعل للوحي أصلًا محفوظًا،

ولساناً مضبوطاً، وباباً واضحاً، وميزاناً لا تضيع معه المعاني في فوضى الترجمات والأهواء. ثم هو غير ذي عوج؛ أي سالم من الميل في لفظه ومعناه ومقصده وطريقه، لا يلتوي بالإنسان، ولا يخدع قلبه، ولا يتركه في ضباب الحيرة. ثم تأتي الغاية: **(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**؛ لأن المقصود من هذا البيان كله ليس الإعجاب فقط، ولا الدراسة فقط، ولا المفاخرة باللسان فقط، بل أن يستيقظ في الإنسان وازع التقوى، وأن يقوم داخله حارسٌ من نور الوحي.

وهكذا علمتنا الآية أن اللغة في القرآن ليست جسداً للمعنى فحسب، بل طريقاً إلى المصير. ليست الكلمة القرآنية لفظاً يطرق الأذن ثم يذوب، بل هي نداءٌ يبدأ من الحرف، ثم يعبر إلى الفهم، ثم ينزل إلى القلب، ثم يوقظ الخشية، ثم يحرك الإرادة، ثم يظهر في السلوك، حتى تصير الآية حياةً تمشي في الإنسان.

ومن هنا يتبين أن أعظم ما في القرآن ليس أنه جميلٌ فقط، بل أن جماله يهدي؛ وليس أنه بليغٌ فقط، بل أن بلاغته تقيم الحجة؛ وليس أنه عربيٌّ فقط، بل أن عربيته غير ذات عوج؛ وليس أنه واضحٌ فقط، بل أن وضوحه يضع الإنسان أمام مسؤوليته. فالقرآن لا يعطيك حقاً غامضاً، ولا طريقاً ملتوياً، ولا لغةً سائبةً تُستعمل للتهرب، بل يمنحك بياناً مستقيماً، كأنه صراطٌ من نورٍ ممتد من السمع إلى القلب، ومن القلب إلى العمل، ومن العمل إلى لقاء الله.

وقد رأينا أن الفرق عظيم بين العربية والبيان القرآني؛ فالعربية، من حيث هي لسانٌ بشري، قد تحمل الحق والباطل، والصدق والكذب، والحكمة والهوى، والبلاغة والمكر. أما العربية حين دخلت في القرآن فقد صارت في

سلطان الوحي، مرفوعةً إلى مقام الهداية، محكومةً بالقصد الإلهي، لا يملك الهوى أن يعبث بها، ولا الجمال أن ينفصل فيها عن الحق، ولا الفصاحة أن تصير غطاءً للانحراف. ولهذا كان القرآن عربيًّا، ولكن ليس ككل كلام عربي؛ لأنه عربيٌّ غير ذي عوج.

وهذه الحقيقة وحدها تصلح أن تكون ميزانًا لكل خطابٍ بشري. فلا يكفي أن تكون العبارة فصيحة، حتى نسأل: إلى ماذا تقود؟ ولا يكفي أن تكون مؤثرة، حتى نسأل: هل أثرها إلى هدى أم إلى فتنه؟ ولا يكفي أن تكون جميلة، حتى نسأل: هل جمالها يخدم الحق أم يخدم الهوى؟ ولا يكفي أن تكون واضحة، حتى نسأل: هل وضوحها أمينٌ على المعنى أم مأكّرٌ في التوجيه؟

فالقرآن علمنا أن الكلمة لا تبلغ شرفها الأعلى إلا إذا صارت خادمةً للهداية، وأن البيان إذا انفصل عن التقوى صار خطرًا، وأن اللغة إذا خرجت من سلطان الحق صارت قادرةً على تزيين العوج، وإعادة تسمية الأشياء، وتحويل الباطل إلى صورةٍ مقبولة. ومن هنا كان القرآن حارسًا للغة كما هو حارسٌ للعقيدة والضمير؛ يردّ الأسماء إلى حقائقها، ويكشف المكر اللفظي، ويسمي الظلم ظلمًا، والحق حقًا، والباطل باطلاً، والتقوى تقوى، حتى لا يتيه الإنسان في قاموسٍ صنعه الهوى.

ولقد ظهر لنا أن **عوج اللغة** ليس عيبًا في العبارة فقط، بل قد يكون بابًا إلى عوج الإنسان كله. فالإنسان كثيرًا ما ينحرف أولاً في الاسم، قبل أن ينحرف في الفعل؛ يغيّر تسمية الذنب حتى يخفّ وقعه، ويبدّل اسم الهوى حتى يبدو مقبولًا، ويلبس الظلم ثوب المصلحة، والجبن ثوب الحكمة، والكبر ثوب

الكرامة، والتفلت ثوب الحرية، والغلة ثوب الراحة. فإذا دخل القرآن، مَرَّق هذه الأفعنة، لا ليهين الإنسان، بل لينقذه؛ لأن من لم يسم مرضه مرضاً لن يطلب الشفاء، ومن لم يسم عوجه عوجاً لن يطلب الاستقامة.

ولذلك كان القرآن غير ذي عوج؛ لأنه لا يشارك النفس في خداعها. إنه مرآة مستقيمة لا تكذب على الوجه الذي يقف أمامها. قد تؤلم صدقاً، ولكنها تؤلم لتداوي. قد تكشف، ولكنها تكشف لتطهر. قد تنذر، ولكنها تنذر لتفتح طريق النجاة. وهذا من رحمته العظيمة: أنه لا يترك الإنسان ينام في لغة مخدرة، ولا يترك الضمير يستريح إلى أسماء مزيفة، بل يوقظه بالحق كما هو، وبالطريق كما ينبغي أن يرى.

ومن هنا نفهم أن القرآن لم ينزل ليصنع متذوقين للبلاغة فقط، بل ليصنع متقين. لم ينزل ليكون موضوعاً للإعجاب، بل ليكون مصدراً للتحول. لم ينزل ليقال عنه: ما أجمله، ثم يبقى الإنسان كما كان، بل ليقال للإنسان من خلاله: هذا طريق ربك، فاستقم. فالدهشة القرآنية التي لا تنتهي إلى خشية ناقصة، والجمال الذي لا يقود إلى امتثال لم يبلغ غايته، والمعرفة التي لا تنشئ وقاية في القلب لم تصل بعد إلى قلب الآية.

ولذلك كانت التقوى هي الغاية الأخلاقية والروحية للبيان. التقوى ليست خوفاً غامضاً، ولا انكماشاً عن الحياة، ولا مظهرًا خارجيًا يُرتدى عند الناس، بل هي يقظة مستمرة أمام الله؛ أن يعلم الإنسان أنه منظورٌ إليه، مسؤولٌ عن كلمته، ونيته، وخطوته، وحكمه، وعلاقته، وماله، ووقته، وغضبه، ورضاه.

والتقوى لا تنشأ من خطابٍ معتم، ولا من لغةٍ ملتوية، ولا من معنىٍ مضطرب، بل تنشأ من بيانٍ مستقيم يضع الإنسان أمام الحق بلا حجاب.

وهنا تظهر الصلة العجيبة بين بداية الآية ونهايتها: لأن القرآن عربيٌّ غير ذي عوج، أمكن للإنسان أن يتقي. ولأن البيان واضحٌ مستقيم، لم تعد النفس تملك عذر الضباب. ولأن اللغة محروسةٌ بالحق، لم يعد الهوى يجد فيها ممراً آمناً. ولأن القرآن من عند الله، لا من صناعة البشر، بقي فوق الأزمنة، يحاكمها، ويكشف عوجها، ويردّ الإنسان في كل عصر إلى السؤال الأول: أين أنت من الله؟

ولقد رأينا كذلك أن العربية في القرآن كانت ميداناً للإعجاز ومجالاً للحجة. فقد جاء القرآن في لسان العرب، لا غريباً عنهم، ولا خارجاً عن جنس ما يتكلمون به، ولكنه جاء بما لا يقدرّون عليه. أعجزهم من داخل ميدانهم، وأقام عليهم الحجة بما يفهمونه، ثم تجاوزهم إلى العالمين؛ لأن اللسان عربي، ولكن الرسالة للناس كافة، والكتاب للعالمين، والنور لا يحبس في حدود القوم الذين نزل بلسانهم.

وهنا ينبغي أن نستقر على دقةٍ لازمة: عالمية القرآن لا تعني فصله عن عربيته، وعربيته لا تعني حصر هدايته في العرب. بل عالميته محفوظةٌ بعربيته؛ لأن النص العربي المنزل هو الأصل الواحد الذي ترجع إليه الأمة كلها، وتوزن به الترجمات والشروح والتأملات. فالعربية هنا ليست حاجزاً، بل حفظٌ للميزان؛ ليست قوميةً ضيقة، بل أمانةً بيانية؛ ليست مفاخرة، بل مسؤولية.

ومن كان أقرب إلى العربية، كان أثقل مسؤوليةً في خدمة القرآن. فليس شرف العربية أن نتغنى بأنها لغة القرآن ثم نهجر القرآن، أو نستعملها في التفاهة والعوج، أو نجعلها رايةً للهوية بلا تقوى. شرفها أن تكون خادمةً لما شرفت به؛ أن تعود إلى وظيفتها الأولى في الوحي: بيان الحق، وصيانة المعنى، وإقامة الحجة، وإيقاظ القلب.

وقد انتهينا في الفصول السابقة إلى ضرورة فقه قرآني للبيان؛ فقه يعلمنا أن نتقي الله في الكلمة، كما نتقيه في الصلاة والمال والنظر والعمل. أن لا نكتب بلا مقصد، ولا نتكلم بلا ميزان، ولا نسمي الأشياء بأسماء تخدم الهوى، ولا نستعمل البلاغة لتجميل باطل، ولا نجعل جمال العبارة حجاباً عن صدق المعنى. فالكلمة في التصور القرآني ليست شيئاً خفيفاً؛ بها يذكر العبد ربه، وبها يشهد، وبها يتوب، وبها يكذب، وبها يظلم، وبها يصلح، وبها يفسد.

ومن هنا فكل من حمل البيان حمل أمانة. الكاتب يحمل أمانة، والخطيب يحمل أمانة، والمعلم يحمل أمانة، والمفسر يحمل أمانة، والناصح يحمل أمانة، ومن يعلّق بكلمة في مجلس أو رسالة أو خصومة يحمل أمانة. ومن فقه القرآن عرف أن الكلمة التي لا عوج فيها ليست بالضرورة أطول كلمة، ولا أفخم كلمة، ولا أكثرها زخرفة، بل أصدقها، وأعدلها، وأقربها إلى الهداية، وأبعدّها عن تلبيس الهوى.

ولذلك فإن من ثمار هذا الكتاب أن نعيد النظر في لغتنا الخاصة: اللغة التي نتحدث بها مع أنفسنا قبل الناس. ماذا نسمي ذنوبنا؟ ماذا نسمي ضعفنا؟ ماذا نسمي تقصيرنا؟ ماذا نسمي خوفنا؟ ماذا نسمي مكرنا؟ ماذا نسمي إحساننا؟

هل نقول لأنفسنا الحقيقة، أم نصنع قاموسًا يخفف عوجنا؟ فالقرآن لا يريد أن يستقيم لساننا أمام الناس فقط، بل أن يستقيم قاموسنا الداخلي أمام الله.

إن الإنسان لا يبدأ طريق التقوى إلا حين يصدق في التسمية؛ حين يقول للذنب: ذنب، وللظلم: ظلم، وللغفلة: غفلة، وللنعمة: أمانة، وللطاعة: فضلٌ من الله، وللفتح: منّة لا استحقاق، وللکلمة الجميلة: مسؤولية لا زينة. عندها تبدأ الكلمة في إصلاح صاحبها، ويصبح البيان بابًا إلى التزكية لا بابًا إلى الغرور.

ومن أعظم ما يجب أن نخرج به أن القرآن، وهو الكتاب المعجز، لا يريد منا أن نُعجب به فقط، بل أن نُعرض عليه. أن نعرض عليه أهواءنا، وأحكامنا، ومصطلحاتنا، ومشاعرنا، وطرائق خطابنا، وخصوماتنا، ومواقفنا. فإذا كشف عوجًا، لم نغضب من النور، بل حمدنا الله أن دلّنا على موضع الظلمة. وإذا صحح لنا اسمًا، قبلنا تصحيحه. وإذا أخذ بأيدينا من إعجاب لغوي إلى خشيةٍ قلبية، علمنا أن تلك هي الرحمة الكبرى.

فالقرآن لا يكره جمال اللغة، بل يعلمها كيف تطهر. لا يخاصم البيان، بل يرفعه. لا يقتل الذوق، بل يهديه. لا يطلب من الكلمة أن تكون خشنةً حتى تكون صادقة، ولا باهتةً حتى تكون ورعة، بل يطلب منها أن تكون جميلةً مستقيمة، صادقةً رحيمة، واضحةً هادية، قويةً بلا ظلم، رقيقةً بلا تميع، عميقةً بلا عوج.

وهذا هو المعنى الذي يمكن أن يكون خلاصة الخلاصات: الكلمة في القرآن طريق. فإن استقامت، استقام بها شيءٌ من الإنسان. وإن اعوجت، فتحت بابًا

لعوج في الوعي والعمل. والقرآن هو الكتاب الذي علّمنا كيف تكون الكلمة صراطاً، لا متاهة؛ نوراً، لا دخاناً؛ حجةً، لا حيلة؛ هدايةً، لا زينةً فارغة.

ومن هنا فإن قوله تعالى: **(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)** يصلح أن يكون دستوراً للكتابة المؤمنة، والقراءة المؤمنة، والتفسير المؤمن، والدعوة المؤمنة، بل للحياة المؤمنة كلها. أن يكون للإنسان أصلٌ يرجع إليه: القرآن. وأن يحترم لسان هذا الأصل: العربية. وأن يحذر كل ميلٍ في الفهم والقصد والتأويل: غير ذي عوج. وأن يجعل النهاية تقوى الله: لعلهم يتقون.

وحين نجمع هذا كله، نعرف أن الكتاب لم يكن في العربية من حيث هي لغة فقط، بل في العربية حين تصوير وحياً متلوّاً، وفي البيان حين يصير طريقاً إلى التقوى، وفي استقامة الكلمة حين تكشف عوج الإنسان، وفي القرآن حين يعيد للغة شرفها، وللقلب يقظته، وللحياة ميزانها.

ولو أردنا أن نختصر الرحلة كلها في صورة واحدة، لقلنا: إن القرآن أخذ الكلمة من فضاء البشر، فطهرها بالوحي، ثم جعلها جسراً إلى الله. فصارت الكلمة فيه لا تقول فقط، بل تهدي؛ ولا تصف فقط، بل تربي؛ ولا تكشف الطريق فقط، بل تمشي بالقلب فيه؛ ولا تنتهي بانتهاء التلاوة، بل تبدأ هناك، في داخل الإنسان، حيث يقرر أن يتقي أو يعرض، أن يستقيم أو يلتف، أن يخضع أو يكابر.

فيا قارئ القرآن، لا تقف عند جمال اللفظ حتى تعبر إلى جلال المقصد. ولا تقف عند العربية حتى تدخل إلى التقوى. ولا تقف عند الإعجاز حتى تسأل نفسك: ماذا يريد الله مني؟ ولا تقف عند نفي العوج عن القرآن حتى تعرض

عليه عوجك. فالقرآن لم ينزل ليكون شاهداً على نفسه فقط، بل ليكون شاهداً عليك؛ لك إن اتبعته، و عليك إن أعرضت عنه.

ويا صاحب الكلمة، اتق الله في بيانك. لا تجعل فصاحتك قناعاً، ولا جمالك فتنة، ولا قدرتك على الصياغة باباً للغرور، ولا التأمل في القرآن باباً لتكثير العبارات بلا خشية. اكتب كمن يعلم أن الكلمة ستُسأل، وتكلم كمن يعلم أن اللسان تحت الرقابة، و اشرح كمن يعلم أن القرآن أعظم من شرحه، واصمت حين يكون الصمت أبقى، وتكلم حين يكون الكلام أعدل، واجعل غاية البيان أن يردّ القلب إلى الله.

ويا محب العربية، لا تجعل محبتك لها مفاخرةً بلا عبودية. أحببها لأنها لسان القرآن، و اخدمها لأنها مفتاحٌ إلى الوحي، واحمها من التفاهة والعوج، ولكن لا تنس أن العربية إن لم تقدك إلى القرآن، والقرآن إن لم يقدك إلى التقوى، فقد بقيت في ظاهر الباب.

ويا من يقرأ القرآن مترجماً أو بعيداً عن لسانه، اعلم أن رحمة القرآن أوسع من لغتك، وأن هدايته تبلغك بما صح من معانيه، ولكن اعلم كذلك أن الأصل العربي هو النبع الأول، فاقترب منه ما استطعت، لا تعصباً للسان، بل شوقاً إلى كلام الله كما نزل.

ثم يا أمة القرآن، إن معركتك مع العوج ليست في الميادين الظاهرة وحدها، بل في اللغة التي تسمين بها الأشياء، وفي الوعي الذي يحكم اختياراتك، وفي القاموس الذي يحدد لك معنى الفوز والخسارة، والقوة والضعف، والحرية

والعبودية، والكرامة والهوى. فإن تركت القرآن يسمّي لك العالم، اهتديت. وإن أخذت أسماءك من أهواء الأرض، دخل العوج من حيث لا تشعرين.

إن القرآن، وهو العربي غير ذي العوج، لا يزال ينادي الإنسان في كل عصر: لا تجعل الكلمة تخونك، ولا تجعل الهوى يعيد تسمية طريقك، ولا تجعل اللغة تُجمل لك ما يبعدك عن الله. تعال إلى بيانٍ لا يكذب عليك، وإلى نورٍ لا يخدعك، وإلى صراطٍ لا يلتوي بك، وإلى كتابٍ لا يريد منك إلا أن تنجو.

وهنا تنتهي الخاتمة لا بإغلاق المعنى، بل بفتح باب العمل. فالآية باقية، والقرآن باقٍ، والطريق باقٍ، وحاجة الإنسان إلى بيانٍ لا عوج فيه باقية. وكلما تلا المؤمن هذه الآية، ينبغي أن يسمع فيها نداءً متجددًا:

هل فهمت؟

هل استقمت؟

هل اتقيت؟

هل صارت الكلمة القرآنية فيك حياة؟

هل خفّ عوجك أمام كتابٍ لا عوج فيه؟

فإن وجد في نفسه جوابًا صالحًا، فليحمد الله. وإن وجد تقصيرًا، فليعد إلى القرآن؛ فإنه لم ينزل ليطرد المقصرين عن بابه، بل ليردّهم إلى ربهم. ومن أعظم رحمته أنه يكشف العوج قبل أن يصير هلاكًا، ويفتح طريق التقوى قبل أن يغلق باب العمر.

فاللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا؛ واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك، واجعل

ألسنتنا مستقيمة بالصدق، وقلوبنا مستقيمة بالتقوى، وأعمالنا مستقيمة على صراطك، ولا تجعل في فهمنا لكلامك عوجًا، ولا في تأويلنا ميلًا، ولا في بياننا غرورًا، ولا في كلماتنا ظلمًا، واجعل ما نكتب ونقول شاهدًا لنا لا علينا.

وبعد؛ فليس أكبر من أن نختم بما بدأنا به، فهو الأصل والمقصد والميزان:

(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ).

فإذا استقامت الكلمة بالوحي، استقام الطريق إلى الله.

والحمد لله رب العالمين

فهرس الكتاب

الصفحة	العنوان	الرقم
3	البداية: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾	1
8	المقدمة الكبرى: حين تصير اللغة طريقاً إلى الله	2
12	الفصل الأول: معنى أن يكون القرآن قرآنًا	3
20	الفصل الثاني: عربياً؛ اللسان حين يصير مقاماً للبيان	4
31	الفصل الثالث: الفرق بين العربية والبيان القرآني	5
42	الفصل الرابع: غير ذي عوج؛ استقامته اللفظ والمعنى والطريق	6
59	الفصل الخامس: لماذا جاء الوصفان معاً: عربياً وغير ذي عوج؟	7
75	الفصل السادس: لعلهم يتقون؛ الغاية الأخلاقية للبيان	8
95	الفصل السابع: العربية بين الإعجاز والحجة	9
111	الفصل الثامن: من اللفظ إلى القلب؛ رحلة المعنى القرآني	10
126	الفصل التاسع: عوج اللغة وعوج الإنسان	11
147	الفصل العاشر: نحو فقه قرآني للبيان	12

الصفحة	العنوان	الرقم
162	الخاتمة الكبرى: حين تستقيم الكلمة يستقيم الطريق	13